ظَلَامٌ فِي التَّبَتِ

- مترجم -

DARKNESS OVER TIBET

T. Illion



Eastern School Press

الظلام عبر التبت
تي. إيليون

سلسلة المسافر الغامض
الظلام فوق التبت

بواسطة
تي. إيليون
مؤلف كتاب "في التبت السرية"

ظلام يخيم على التبت

نُشرت لأول مرة بواسطة دار نشر رايدر وشركاه، لندن.
طُبع في الولايات المتحدة الأمريكية
هذه الطبعة: 1991
ISBN 0-932813-14-3
نُشر بواسطة دار نشر أدفنتشرز أنليميتد برس
صندوق 22، ستيل، إلينوي 60919-9989 الولايات المتحدة الأمريكية

مقدمة:
كان الرحالة الألماني تيودور إيليون من أوائل الرحالة الذين توغلوا في التبت بينما كانت لا تزال معزولة عن العالم الخارجي. اضطر إيليون، الذي كان يتحدث التبتية بطلاقة، إلى التنكر في زي راهب تبتي متجول لتجنب اكتشاف أمره، إذ كان وجود أي أجنبي في التبت غير قانوني.
بدأ التخطيط لرحلته في عام 1932 وغادر ألمانيا في عام 1934. بعد عدة سنوات من المغامرات والنجاة بأعجوبة من الموت، عاد إلى ألمانيا ليكتب كتاب "Ratfelhaftes Tibet"، الذي نُشر في هامبورغ عام 1936. وسرعان ما تُرجمت كتبه إلى الإنجليزية ونُشرت بواسطة دار نشر Rider & Company في لندن: "IN SECRET TIBET" (1937) و"DARKNESS OVER TIBET" (1938).
كتاب "ظلام فوق التبت" نادر للغاية. كوّن إيليون معارف صدفة قادته إلى التواصل مع حكماء وسحرة. ثم دُعي للعيش والدراسة في مدينة تحت الأرض بوسط التبت. تُعدّ رحلاته اللاحقة، بما فيها هروبه المثير للرعب، من كلاسيكيات أدب الرحلات في ثلاثينيات القرن العشرين. يُعتقد أن روايات إيليون عن التبت كان لها دورٌ حاسم في إقناع الحكومة النازية في ألمانيا بإرسال بعثات سنوية إلى التبت. يروي المجلد الأول، "في التبت السرية"، الحلقات الأولى من مغامرات إيليون الشيقة في آسيا الوسطى.
وفي كتابي "في التبت السرية"، أقدم ملخصًا لرحلتي الأخيرة إلى التبت، موضحًا كيف تمكنت، بعد احتكاكات متكررة مع جموع التبتيين وعصابات قطاع الطرق، من زيارة الأديرة التبتية متنكرًا في زي أحد السكان المحليين. بعد مشاهدة عجائب مختلفة، مثل اللامات الطائرة والطقوس التبتية، وصلت إلى المرحلة الأخيرة من الرحلة في أكثر مناطق البلاد عزلة، حيث يعيش النساك التبتيون الحقيقيون، الذين يمتلكون القدرة على قراءة أفكار الناس، ويتمتعون بقدرة عجيبة على الحفاظ على شبابهم إلى الأبد تقريبًا.
إن محادثاتي مع هؤلاء الحكماء، والتي تم تسجيلها في كتابي السابق، تعكس درجة معينة من الفهم للمشاكل الحيوية المتعلقة بالحياة والموت، والجرائم الروحية، والخلاص والأبدية، وقد تساءل العديد من قرائي عن كيفية وصول المؤلف إلى درجة من الفهم جعلت هذه الاتصالات الروحية ممكنة.
دعوني أقول، في هذا السياق، إن الفهم الحقيقي في الأمور الروحية هو ثمرة صراع مرير، ومعاناة، وآلام روحية، وشغف عميق. فالحياة نفسها ما كانت لتكون ذات معنى لو لم يكن هناك صراع على مستويات الذكاء الاصطناعي، لو كان كل شيء يسير بسلاسة ورتابة. كل شيء في الطبيعة يتصارع. كل نبتة تكافح لتنال المزيد من أشعة الشمس.
* الأشخاص الذين يستطيعون الجلوس عراة وبلا حراك لعدة ساعات خلال ليالي الكولا المثلجة دون أن يتجمدوا حتى الموت.
كل حيوان يقاتل من أجل الطعام؛ حتى الملائكة تقاتل. الصراع الدائم في جميع العوالم التي تصل إليها هو حقٌّ أصيلٌ للمخلوق. ويلٌ لمن يريد أن يضع نفسه في مصافّ الخالق ويتهرّب من القتال!
لقد مررت بتجارب مريرة أيضاً. خلال رحلاتي، التقيت ببعض أسمى الكيانات الروحية المتجسدة في الجسد، ليس فقط أولئك الذين يعملون لصالح الخالق، بل أيضاً أولئك الذين يعملون ضده.
حتى نيران جهنم لها مهمتها. فهي تهلك الإنسان إن كان ضعيفاً، أما إن كان قوياً فهي تطهره بحرق الشوائب.
يُكمّل هذا الكتاب كتاب "في التبت السرية" بعرض جانبٍ مختلفٍ من الصورة، جانبٌ يُظهر بعض شياطين النور والعديد من شياطين الظلام. سيساعد القارئ على إدراك أن الروحانية في الواقع محيطٌ هائجٌ للغاية. تيارات الحياة متشابكة، والخير والشر، والنور والظلام، على بُعد شعرةٍ من بعضها البعض.

يُلمح أحيانًا إلى وجود مدينة تحت الأرض في التبت من قبل أشخاص مطلعين في البلد المحظور، على الرغم من أن القصص غالبًا ما تكون مبالغ فيها وتحول المدينة تحت الأرض، التي نجحت في دخولها، إلى "إمبراطورية تحت الأرض عظيمة يسكنها ملايين الأشخاص".
تصبح التبت أكثر سهولة في الوصول إليها مع مرور السنين، وأنا واثق من أن المستكشفين الآخرين سيؤكدون في النهاية وصفي للمدينة تحت الأرض في التبت.
تي. إيليون.

محتويات

الفصل الأول
مطاردون من قبل قطاع الطرق التبتيين

KE SHU KHA RU,كان الفتى التبتي اللص الذي هرب من عصابته لينضم إليّ في عزلة التبت الغامضة، والذي ربما لقي حتفه بطريقة مروعة نتيجةً لاستقلاليته، شابًا تبتيًا ذكيًا، أقنعه شقيقه، وهو لصٌّ مهيب، بالانضمام إلى عصابته من قطاع الطرق الذين يهاجمون المسافرين غير المحميين في غرب التبت. كان الفتى جاهلًا تمامًا بالمعنى الغربي للكلمة، ولكنه مع ذلك كان شديد الذكاء.

تُعدّ محادثاتي مع هذا الشاب التبتي اللص - لم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره حين سافرنا معًا - من أبرز تجاربي في التبت، سواءً كانت مشرقة أو مؤلمة. كانت ملاحظاته عن الدول الغربية، رغم بساطتها وعفويتها، بمثابة كشفٍ لي من نواحٍ عديدة. في تقييمه للحضارة الغربية، كان لدى كي شو خا رو، الذي لم يسمع شيئًا عن الغرب من قبل، ميزة لا تُقدّر بثمن، وهي رؤية الأمور بموضوعية تامة، وكأنه من كوكب آخر. شعرتُ وأنا أستمع إليه وكأنني إنسان.¬

الذي لم يغادر منزله قط، وبالتالي لا يعرف حقاً كيف يبدو الأمر حتى يخرج منه ويلقي نظرة جيدة عليه من الخارج.

كان كي شو خا رو أحد أفراد عصابة اللصوص الذين هاجموني فجرًا في منطقة مستنقعية، وقد خضتُ معه مغامرة طريفة دوّنتها في كتابي السابق. اختصر أحد اللصوص الطريق عبر المستنقع ليكون أول من يسرقني، تاركًا رفاقه خلفه بمسافة طويلة. عندما ابتلعه المستنقع حتى صدره، أنقذتُ حياته، ومن ثمّ توطدت علاقتي بالعصابة بأكملها.

بينما كنا نتناول الإفطار معًا ونتحدث عن السفر والبلدان الأخرى، لاحظت أن أحد أفراد المجموعة، وهو فتى يبلغ من العمر حوالي ستة عشر أو سبعة عشر عامًا، كان يراقبني باستمرار بعيون لامعة.¬¬

سمعته يقول بإعجاب لأحد قطاع الطرق: "يا له من شعور رائع ألا تخاف!". بعد هذه الملاحظة، أراني الصبي لسانه مرارًا وتكرارًا، وهو ما يُعدّ علامة على التقدير الكبير في التبت.

وبعد ربع ساعة، تمنى لي قطاع الطرق "رحلة هادئة".

عندما ابتسموا جميعاً وأظهروا لي ألسنتهم عند الوداع، بدا أن الصبي وحده هو من انصرف.

ابتعدتُ جنوباً. اتجه قطاع الطرق شمالاً. عندما استدرتُ رأيتُ أنه يبدو متأخراً عنهم.

صرخ قطاع الطرق باسمه مرتين، فتبعهم الصبي، وبدا على الجميع أنه فعل ذلك على مضض.

حافظتُ على وتيرة سريعة لساعات طويلة. ولم أجلس لأرتاح إلا بعد أن بدأت الرياح تهب في فترة ما بعد الظهر، بعد أن قطعت مسافة عشرين ميلاً تقريباً منذ أن فارقت اللصوص.

شعرتُ ببعض التعب والنعاس. كان هذا الأسبوع الرابع الذي أمضيته على ارتفاع 15000 قدم، حيث كنت أعيش على طعام غير كافٍ وأقطع مسافات شاسعة يومياً في هواء الجبل الرقيق.

بدأت الرياح للتوّ تُثير سحباً صغيرة من الرمال الناعمة، حجبت الرؤية قليلاً في المنظر الطبيعي المتموج قليلاً والمحاط بجبال شاهقة في الأفق، حين ظهرت بقعة سوداء صغيرة وسط الرمال المتطايرة. ظننتها في البداية حيواناً، ولكن بعد دقائق قليلة، كبر حجم الشكل المتحرك، ورأيت أنه يمشي منتصباً. كان إنساناً، يسير مباشرةً نحو المكان الذي كنت أجلس فيه.¬

إن فرص لقاء إنسان آخر في سهول شمال التبت الشاسعة غير المأهولة لا تزيد عن فرصة الفوز بجائزة كبيرة في اليانصيب. لم أصدق عينيّ.

عندما اقترب مني ذلك المتجول الوحيد لمسافة أمتار قليلة، توقف وحدق بي مبهوراً. عرفته. كان هو فتى اللصوص التبتي الذي كان يراقبني في وقت سابق من اليوم.¬

"أوه جياج، أوه جياج" قال كي شو خا رو.

لقد حان دوري لأشعر بدهشة كبيرة عند اللقاء

الشاب الذي رأيته يتحرك في الاتجاه المعاكس قبل نصف يوم.

على الأرجح، أُجبر هذا الفتى على امتهان السرقة رغماً عنه. فقد رأى رجلاً يجوب الصحراء وحيداً دون أن يخشى عصابة من اللصوص. ولعل هذا المشهد قد أثار لديه شغفاً فطرياً بالمغامرة وخوفاً من الرتابة، وهما صفتان شائعتان بين الفتيان في مثل عمره. فالفتيان يبدون متشابهين في كل مكان، إذ يمتلئ معظمهم بالحماس حتى يفقدوا بريقهم بسبب سوء مثال الآخرين وقسوة الحياة. وفي سعيهم الدؤوب لمقاومة تأثيرات محيطهم الكئيبة لسنوات طويلة، لا ينجح معظمهم إلا ظاهرياً، بينما تتشوه ذواتهم الحقيقية تدريجياً وتُقمع في الصراع الذي لا يزال يواجهه الفتيان في مثل سنهم.

بعد أن ترك رفاقه، شعر الفتى التبتي، كما أخبرني لاحقاً، بالوحدة، ولذلك قرر الانضمام إليّ باتباع آثار أقدامي بأسرع ما يمكن.

نظر إليّ كي شو خا رو باستفسار. كنت غارقاً في التفكير، أدرس الموقف.

وكما هو الحال مع معظم الأمور الأخرى في الحياة، بدا الظهور المفاجئ للشاب التبتي نعمة مختلطة للغاية.¬

لو لم يكن الصبي قوي البنية، لكان عائقًا كبيرًا لعجزه عن تحمل الجهد البدني الناتج عن حركاتي السريعة. علاوة على ذلك، سيكتشف عاجلاً أم آجلاً أنني شخص أبيض.¬

من ناحية أخرى، قد يكون الصبي مفيداً إلى حد ما.

إذا كان موثوقاً به وقادراً على تحمل مشاق المسيرات الشاقة مع العيش على كميات قليلة من الطعام غير المطبوخ، فسأجعله يتحدث إلى الناس وأبقى أنا في الخلفية تماماً، مما يقلل من فرص اكتشاف أمري.

كان كي شو خا رو قوي البنية وذو بنية جيدة. كانت ملابسه في حالة ممتازة. أحضر معه طعامًا يكفيه لعدة أيام، بالإضافة إلى كيس صغير مليء بالروث الجاف. كان يرتدي حذاءً جلديًا عاليًا من نوعية ممتازة. من الواضح أن العصابة قد انتقيت أفضل ممتلكات ضحاياها لاستخدامها الشخصي. كان نظيفًا إلى حد ما، وتدلّ نظرة عينيه وملامحه على طاقة وذكاء استثنائيين.

قررت أن أغامر معه. على أي حال، كان من المستحيل طرده إلى الصحراء.

استعدّ الصبي لطهي الطعام. فتح الكيس الذي يحوي روثًا مجففًا وأدوات الطبخ الخاصة به لإعداد الشاي. تفاجأ كثيرًا وكاد ينزعج عندما منعته من إشعال النار، مضيفًا أنه ما دام يسافر برفقتي، فلا ينبغي لي السماح له بذلك أبدًا، لا للتدفئة ولا للطبخ. بعد تفكيرٍ قصير، بدا أن كي شو خا رو قد أدرك سبب هذا الاحتياط، الذي يزيد بشكل كبير من سلامة المسافرين غير المحميين، وبحركة سريعة ألقى بكيسه الممتلئ بالروث.

كان من الغريب جدًا أن يكون له رفيق بعد أسابيع طويلة من السفر وحيدًا. قام فتى اللصوص بتفريغ أمتعته. كان كل شيء جديدًا تقريبًا ونظيفًا إلى حد كبير. دلّ اختيار الأغراض المختلفة على ذوق رفيع وحس عملي.

موقف المالك العملي. ظننتُ أنه إذا اصطحبتُ الصبي معي إلى الغرب بعد إتمام رحلتي في التبت، فسوف يتأقلم مع الظروف الغربية أسرع بكثير من أي تبتي آخر قابلته حتى الآن.¬
في الصباح الباكر، بدأ يخلع ملابسه ليتوضأ على الطريقة التبتية، وذلك بفرك جسده بقطعة كبيرة من الزبدة. ثم أتى إليّ بقطعة زبدة أخرى، ودهش كثيراً عندما رأى أنني أرفض الاغتسال. ربما ظنّ أنني شخص شديد القذارة.¬
بينما كان كي شو خا رو يتأمل في غرابة رفيقه الجديد، فكرتُ في أفضل طريقة لإخبار الصبي بأنني أبيض البشرة. ما لم أخبره بنفسي، سيكتشف الأمر عاجلاً أم آجلاً. إن إخفاء مثل هذا السر عن رفيق ذكي يشاركني كل لحظة من حياتي في صحاري آسيا الوسطى القاحلة يتطلب الكثير من الدهاء والمعاناة، بما في ذلك ضرورة امتناعي عن الاغتسال!¬
بعد تناول وجبة غير مطبوخة، وبينما كنا في طريقنا مرة أخرى، أخبرت الصبي أنني تأخرت نصف يوم وأنني أفكر في المشي طوال اليوم من الصباح إلى الليل. لم يبدُ أنه يمانع ذلك.
لقد تحدثنا كثيراً.
سأل الصبي: "لماذا لا تخاف؟ لقد راقبتك هناك على الجزيرة الجافة في المستنقع. عندما اقترب عدوك بشكل مهدد، وقفت هناك تراقبه بهدوء."
لا يُحسّن المرء الأمور بمجرد كونه
أجبتُ: "خائف، كي شو خا رو. علينا أن نتقبل الأمور في الحياة كما هي. من الحماقة تحدي المخاطر. ولكن عندما تواجهنا المخاطر، يجب أن نواجهها بهدوء."
قال الصبي: "لقد أعجبت بك كثيراً هناك، ولكن عندما سُحب اللص إلى أسفل المستنقع وألقيت الحبل لإنقاذ حياته، فوجئت كثيراً".
أجبت: "لقد أنقذته، بافتراض أنه كان لديه روح".
"ما هذا ؟"
"أفضل ما فينا. جوهرنا الحقيقي. الناس الذين يملكون روحاً يتفاعلون مع اللطف. إذا أنقذت حياة معتدٍ وكان يملك روحاً، فإنه يُنزع سلاحه. روحه ستمنعه من مهاجمة من أنقذه."
"هل سيشعر جميع الناس بالعجز أمام اللطف والحب اللامحدودين؟"
"لا يا كي شو خا رو،" أجبت بحزن، "ليس الجميع. فقط الأشخاص الذين لديهم روح. لكن الكثير من الناس لديهم روح."
قال اللص التبتي: "قل لي، لنفترض أن الرجل الذي أنقذت حياته بسحبه من المستنقع قد هاجمك مباشرة بعد ذلك. ماذا كنت ستفعل حينها؟"¬
"كان ينبغي عليّ أن أرى أنه بلا روح، وكان ينبغي عليّ أن أدفعه إلى المستنقع القاتل على الفور."
سأل الصبي: "هل تعتقد أن لدي روحاً؟"
نظرت في عينيه. "نعم، كي شو خا رو،" أجبت، "لقد فعلت."
"هل يمكن للإنسان أن يفقد روحه؟"
"نعم، أعتقد ذلك، ولكن ليس دفعة واحدة. إنها عملية بطيئة ومروعة."
"كيف يمكنه أن يفقدها؟"
"بإثمه على نفسه".
"كيف ؟"
"بتعذيب روحه؛ باستخدام الله لأغراض أنانية."

"ما هو الله؟"
يا إلهي، لقد وجدت نفسي الآن في نقاش لاهوتي مع لصٍّ تبتي. لم تعد معرفتي باللغة التبتية العامية كافيةً لهذا النقاش. على أي حال، كان عليّ أن أستمر.
قلت: "الله هو الذي خلقك".
"Kho by as pa mayin" لاحظ كي شو خا رو. "لقد صنعني والدي."
"tyod-ai lus byas payin"]قلت: "لكن الله خلق روحك. هو أبو روحك".
"أيضًا من نصيبك؟"
"نعم، وأنا أيضاً."
"إذن نحن إخوة؟"
"نعم، نحن كذلك. نفس الأب خلق أرواحنا."
تألقت عيناه. "أنا سعيد لأنك أخي."
وبعد توقف قصير سأل:
"والناس الذين لا روح لهم... من هو أبوهم؟"
أجبت بحزن: "لقد كانوا أبناء أبينا، لكن الإله الأسود العظيم يمتلك أرواحهم".
"هل تناوله؟"
"نعم - أو بالأحرى، لقد أعطوه إياه."
"هل يستطيع LJ)a-gnag-chenpo أن يأخذ أرواحنا أيضًا؟"
"لا، لا يستطيع ذلك، إلا إذا أعطيناها له طواعية."
"لكن أخبرني من يملك قوة أكبر: الأب الذي خلق أرواحنا، أم الإله الأسود العظيم؟"
فأجبته: "إن أبانا هو الأقوى".
"لماذا لا يسحق الإله الأسود العظيم؟"
قلت: "الإله الأسود العظيم يكره الأب، لكن في ضلاله الأعمى إنه يحرس بيت الآب حقًا. إذا أراد أحد أن يكون مثل الآب، إذا أراد مخلوق أن يكون مثل الخالق، فإن الإله الأسود العظيم يستولي على روحه.
قال اللص الشاب: "لم أعد أفهم هذا".
غيّرت الموضوع. كانت قطرات العرق تتجمع على جبيني. لقد بذلت جهداً كبيراً لمناقشة مثل هذه المشاكل باللغة التبتية الركيكة.
أسرعتُ في المشي أكثر فأكثر. ابتسم الصبي وسار أسرع ليُظهر لي أنه لم يكن متعباً على الإطلاق وأنه رفيق من الدرجة الأولى يتمتع بالحيوية والنشاط.
سأل بعد فترة وجيزة: "هل تخاف من الموت؟"
كان من الواضح أن ذهنه منشغل بمشاكل عميقة. ورغم واقعيته، إلا أنه كان متأثراً بالمفهوم التبتي للأمور. فالاعتبارات الروحية والباطنية تلعب دوراً أكثر أهمية في حياة التبتيين من المشاكل العملية التي تشغل أذهان البيض في المقام الأول.¬
أجبتُ: "لا، لستُ خائفاً من الموت". "إذا
إذا متُّ، فلن تنفصل روحي عن الآب. الموت الحقيقي هو موت الروح. أما موت الجسد فليس مروعاً، مع أنه مؤلم لمن يحبوننا.
"هل أحببت أحداً من قبل؟"
"نعم. وعندما أحب، أحب بشدة، بكل كياني وبشغف روحي لا يوصف."¬

أليست الحياة رائعة؟

"هذا صحيح، مع أنه يسبب المعاناة أيضاً."

"إن المعاناة لا تزيد إلا من متعة الاستمتاع اللاحق"، هكذا علّق كي شو خا رو بضحكة مرحة.¬

هل يمكن للمرء أن يتخيل فتى غربي يدلي بمثل هذا التصريح؟

زدتُ السرعة مجدداً. كنا نسير الآن بسرعة تقارب أربعة أميال في الساعة في هواء الجبل الرقيق. لم يُبدِ الصبي أدنى علامة على التعب. كنتُ مصمماً على عدم اقتراح الراحة حتى يطلبها بنفسه. لكن المسافة المقطوعة كانت تطول أكثر فأكثر.

سأل فجأة: "هل أنت معجب بشخص ما؟"

قلت: "نعم".

"مَن ؟"

"كل من يملك روحاً."

"لا أحد على وجه الخصوص؟"

"ليس في الوقت الحالي."

"لا أصدقاء؟"

أجبت: "المئات والآلاف، ومع ذلك أشعر بالوحدة الشديدة".

قال: "أنا معجب بك".

"لماذا ؟"

لأنك رجل كبير. أنت بسيط للغاية

مطاردون من قبل قطاع الطرق التبتيين

عمرك 19 عامًا، ومع ذلك فأنت ذكي، وطيبتك قوة وليست ضعفًا. أعرف ذلك... أنت أكبر مني سنًا، لكنك ما زلت فتى مثلي... أخبرني، كيف أناديكَ؟

"Bod-laa min ba ma yin" قلت ذلك بعد بعض التردد.

"لا اسم لك في التبت... أخبرني أيضاً، لماذا تتحدث التبتية بهذه الرداءة؟ كنت تتحدث قليلاً مع قطاع الطرق، ولم أكن ألاحظ ذلك حينها. أما الآن، وقد أصبحت تتحدث بإسهاب، فلا يسعني إلا أن ألاحظ ذلك. حقاً لا أدري ماذا أقول عنك."

نظر إليّ مباشرةً بعينيه الكبيرتين الذكيتين.

سألته: "هل سمعت شيئاً عن البيض يا كي شو خا رو؟"

"نعم... لا بد أنهم وحوش مرعبة."

"حقًا ؟"

"بالتأكيد. أناس بلا قلوب. قبيحون - مثيرون للاشمئزاز - سيئون - قساة - فظيعون - غير إنسانيين..."¬

"كلهم؟"

"نعم، جميعهم، بدون استثناء واحد أنا"

"من أخبرك بهذا يا كي شو خا رو؟"

"قطاع الطرق، وعائلتي أيضاً. لقد حصلنا على ذلك من الكهنة."

"هل ستتعرف على شخص أبيض هنا في التبت؟"

أراهن أنني سأفعل. حتى لو كان متنكراً بأذكى تنكر، فسيكشف عن نفسه برائحته الكريهة. من المعروف أن رائحة البيض كريهة للغاية لدرجة أن بودباس سيصاب بالمرض عند الاقتراب منهم لمسافة نصف كوساتسا (مسافة سمع).
"هل أنت متأكد تمامًا من صحة هذا؟"
"لكن بالطبع. نحن نعرف ذلك من أشخاص نصدقهم في كل شيء."
"اسمع يا كي شو خا رو، ماذا ستفعل لو قبضت على شخص أبيض هنا في التبت؟"
راقبت وجهه بترقب شديد.
أجاب مترددًا: "لا أعرف، لم أفكر في الأمر قط". وبعد صمت قصير أضاف: "سيقوم معظم التبتيين باعتقاله فورًا وتسليم هذا الوحش الأبيض إلى اللامات".
"ماذا سيفعل اللامات به؟"
"سمعت أنهم كانوا يدفعونه إلى أسفل بئر عميقة. وهناك كان يسقط على كومة من جثث البشر ويموت ببطء من الجوع والعطش."
سألت فجأة، وأنا أفتح عينيّ الزرقاوين بالكامل وأفكّ حزام الجلد الموجود أسفل ذقني، كاشفاً عن صدري الأبيض: "لو كنتُ شخصاً أبيض، فهل سيكون ذلك خطئي؟"
ارتدّ الصبي التبتي إلى الوراء كما لو أنه تلقى ضربة قاتلة، وكاد يختنق. وظهرت قطرات عرق باردة على جبينه.
"ماذا، أنت—-أنت، أنت رجل أبيض؟" تلعثم.
"هل هذا خطئي يا كي شو خا رو؟" تساءلت بهدوء.
جلس وهو يشعر بالرعب.
قال بعد برهة: "لكنني تعرضت للأكاذيب. أنت لست وحشًا على الإطلاق... لكنك أنت فقط شخص أبيض... يا له من أمر مروع!"
"هل ستسلمني للكهنة؟"
نظر إليّ مباشرةً. ولأول مرة رأيت الدموع في عينيه.
"لا، لن أفعل."
"هل يمكنني التأكد من ذلك؟"
"قطعاً."
"هذا لطف منك يا كي شو خا رو."
"إذا اكتشفك الآخرون في التبت وقام الكهنة بإلقائك في البئر..."
"حسنًا؟"
"لا شيء، لا شيء."
أعطيته بعض الوقت ليتجاوز الصدمة التي تلقاها، ثم سألته بابتسامة خفيفة:
"لا تهرب مني الآن يا كي شو خا رو، الآن وقد عرفت أنني وحش كريه الرائحة، قبيح، مقرف، سيئ، قاسٍ، فظيع، لا إنساني..."
"لا،" قال بهدوء، "لقد كذب اللامات واللصوص، فهل أنت المخطئ لأنك ولدت في الغرب؟"
قلت: "لا، كنت صغيراً جداً في ذلك الوقت لأختار سكاي-سا".
ضحكنا كثيراً. لقد انقضت لحظة بالغة الأهمية من رحلتي في التبت.

كم كان كي شو خا رو واسع الأفق لدرجة أنه استطاع أن يتخلى في لحظة عن كل الأحكام المسبقة التي رسخت في رأسه تدريجياً على مدار سنوات عديدة 1 ... أليس من الحقيقة أن هناك شيئًا ما في بعض الناس يرفعهم إلى ما هو أبعد من قيود الوراثة والبيئة؟
انقشعت الغيمة وأخذنا قسطاً من الراحة التي استحقناها، وتناولنا دقيق الشعير النيء الممزوج بقليل من الزبدة الفاسدة.
عندما توقفنا كلانا عن الأكل، ولم يتحرك أي منا أو يتكلم، أدركتُ
ساد صمت الموت صحراء قاحلة، كان رتيبًا ومُرعبًا. لا يخرج إلى الصحراء إلا سكان غرب التبت أو لاداخ، حيث يتجولون بمفردهم من حين لآخر. أما سكان شرق التبت فلا يفعلون ذلك أبدًا، إذ يعتقدون أن الصمت والشياطين سيقتلونهم.
في صمتٍ مطبقٍ لدرجة أن الأذنين تبدآن بالطنين، يبدو صوت الإنسان كأنه موسيقى عذبة. فلا عجب أن يعتاد من يعيشون بمفردهم لأشهر في مثل هذه البيئة على التحدث بصوت عالٍ مع أنفسهم.
وبعد ربع ساعة كنا في طريقنا مرة أخرى. بدا الشاب التبتي حريصًا جدًا على معرفة شيء عن "البلد الذي يتميز سكانه بوجوههم المبيضة".
"كم تبعد بي-لين-با من هنا؟" أجبت: "بعيدة جداً".
"أين هي ؟"
أشرتُ نحو الغرب.
"وماذا يوجد هنا؟" سأل، مشيراً إلى الجنوب.¬
أجبتُ: "جير".
"وهناك؟" - وأشار إلى الشرق.
^غيادناغ^\قلتُ.
كم يومًا تستغرق الرحلة من هنا إلى بي-لين-با؟
"أشهر عديدة. لكن البيض يسافرون أسرع بكثير من التبتيين. بمجرد أن يغادر الرجل التبت، فإنه يسافر بسرعة هائلة."
"كيف ؟"
فكرت في السيارات والسكك الحديدية. لا توجد كلمات تبتية لوصفهما.
"يسافر البيض في إطارات مستطيلة تتدحرج على عملات معدنية أكبر من رؤوسهم بأربعة أضعاف."
"يا للعجب! أخبرني، هل يتم وضع صور جياج* في هذه الإطارات؟"
"لا، لا توجد حيوانات الياك في بلاد البيض."
"ما نوع الحيوانات المستخدمة في سحب الهياكل؟"
"لا توجد حيوانات على الإطلاق. الهياكل تتحرك من تلقاء نفسها."
"هل يستخدم البيض الأشباح إذن، لسحب أطرهم؟"
"لا. الأشباح لا تخدم البيض."
"لا بد أن هناك شيئًا ما يسحب تلك الإطارات. ما هو؟"
"شركة A&F تفعل ذلك... تمامًا كما تأكل أنت دقيق الشعير وتأكل الحيوانات نسبة من الطعام لتستمر في الحياة، فإن الإطارات التي يستخدمها البيض تحترق."¬
"نار! ألا تحرق أفواههم؟"

"لا. ليس لديهم أفواه على الإطلاق. فقط البشر والحيوانات لديهم "خانام". الهياكل العظمية ليس لديها أفواه."
"كيف يمكنهم أن يأكلوا إذن؟"
حككت رأسي. لا شك أن شرح التفاصيل التقنية لكي شو خا رو أمرٌ صعب. كيف لي أن أخرج من هذا المأزق بسرعة حتى لا يظن الصبي أنني تناقضت مع نفسي؟ فكرت في الأمر ملياً.
"لقد قلت للتو إنهم يأكلون"، هكذا علّق التبتي.
وبشدة، "والآن تقولون إنهم بلا أفواه! أرجو التوضيح."
تخيلت سيارة مرة أخرى. يا له من مأزق كنت فيه!
خطرت لي فكرة رائعة. قلت: "انظر هنا، هل سبق لك أن اقتلعتَ شجيرة من الأرض؟"
قال: "نعم".
"ماذا رأيت في الأرض إذن؟"
"أنابيب خشبية صغيرة تتغذى بها النبتة." "حسنًا،" قلت، "تحصل الهياكل التي تأكل النار على غذائها من خلال أنابيب معدنية."
"من الأرض؟"
اضطررتُ، بلا شك، إلى التخلي عن تقديم التفاصيل التقنية. حاولتُ شرح الأمور من خلال رسم تخطيطي سريع على ورقة، لكن على الرغم من ذكائه الملحوظ، لم يستطع كي شو خا رو فهم أي شيء. ربما كانت تلك المرة الأولى في حياته التي يرسم فيها.
قال متنهدًا: "كم هو صعب فهم لغة بي-لين-با! لا داعي لكل هذه التفاصيل. فهمت مما تقول أن الهياكل تأكل النار. على أي حال، لا بد أن لديها هضمًا ممتازًا، ولا شك أن كمية كبيرة من الدخان تخرج منها من الخلف."
"ليس من الخلف تحديداً، ولكن هناك بعض المشاكل على أي حال."
وتابع قائلاً: "أخبرني، هل تتحرك هذه الهياكل التي تلتهم النار بسرعة؟"
"غالباً ما تكون أسرع بخمس عشرة مرة من أسرع حيوانات الياك."
تتحرك حيوانات الياك التبتية عادةً بهدوء في
بمعدل أقل من ميلين في الساعة، لذلك لم يكن هناك مبالغة في القول بأن وسائل النقل الحديثة تتحرك أسرع بخمسة عشر مرة.
"يا له من أمرٍ استثنائي!"، علّق كي شو خا رو. "هياكل تلتهم النار تتحرك أسرع بخمس عشرة مرة من حيوانات الياك... أخبرني، لماذا يريد البيض السفر أسرع بخمس عشرة مرة مما نسافر؟ لماذا؟"
قلت بعد بعض التردد: "يريد البيض السفر بشكل أسرع لأنهم يريدون أن يكونوا سعداء. كلما سافروا بشكل أسرع وبنوا منازل أعلى، كلما اعتقدوا أنهم سيكونون أكثر سعادة".
"وهل البيض أكثر سعادة منا؟" استمر الصبي الذكي في طرح الأسئلة بثبات محرج إلى حد ما.
قلتُ وأنا أشعر بشيء من الخجل: "لا، إنهم ليسوا أسعد من التبتيين".
وتابع كي شو خا رو قائلاً: "هذا غريب جداً. يستخدم البيض هياكل أكل النار للشعور بالسعادة، ويبنون كانبا-مثون-بو كما تقول، لكي يكونوا سعداء، ومع ذلك تقول إنهم ليسوا أسعد منا، فنحن لا نملك أفرانًا تلتهم النيران ولا بيوتًا عالية... لماذا؟
كان هناك صمت طويل.
سأل مرة أخرى: "لماذا؟ أخبرني لماذا؟"

أجبتُ: "اسمع يا كي شو خا رو، يبدو أن البيض يعانون من مشكلة غريبة. إنهم يخترعون المزيد والمزيد، ويجعلون الحياة أكثر راحة، ولكن بينما يفعلون كل هذا، فإنهم يعقدون حياتهم أكثر فأكثر ويخلقون احتياجات إضافية، لذلك في النهاية لا يكونون أفضل حالاً مما كانوا عليه في البداية."
هبت عاصفة برد فجأة.
تكثر عواصف البرد في التبت خلال فصل الصيف. كانت حبات البرد الضخمة تتساقط بغزارة، وشعرتُ بتأثيرها من خلال ملابسي التبتية السميكة. عندما وجدنا أن بعض حبات البرد بحجم حبة الجوز، استلقينا على الأرض وتغطينا بأمتعتنا، وانتظرنا بصبر حتى انقضت العاصفة.
لم يدم الأمر سوى عشر دقائق، تاركاً الأرض مغطاة بطبقة من الجليد بسمك عدة بوصات.
ثم أشرقت الشمس، وأصبح الهواء صافيًا كالبلور، مما يؤكد مجددًا أن التبت بلدٌ يتميز بتناقضات مناخية هائلة. كنا نرتجف من البرد قبل دقيقتين، والآن أصبح الجو حارًا جدًا، أشبه بالطقس الاستوائي. اختفت كتل الجليد الضخمة بسرعة تحت أشعة الشمس الحارقة، وظهرت سيول صغيرة في كل مكان. كنا نعلم أن الأرض ستجف قريبًا، فبقينا جالسين لبعض الوقت.
أثار حديثنا عن الدول الغربية اهتمام وخيال كي شو خا رو بشكل كبير، وبمجرد أن انقضت عاصفة البرد عاد إلى الموضوع نفسه.
قال: "لقد قلتَ إنّ البيض اعتادوا على تعقيد الحياة وخلق احتياجات إضافية. أنا فضولي للغاية لمعرفة ما يفعلونه لتعقيد الحياة."
تذكرتُ الصعوبة التي واجهتني قبل قليل عندما حاولتُ وصف سيارة له. لم يكن إيصال فكرة عن تعقيدات العصر الحديث بالأمر الهين. علاوة على ذلك، فإن اللغة التبتية غير مناسبة إطلاقاً لتقديم أي وصف ذي طبيعة تقنية.¬
عند استخدامها لوصف الأشياء المادية، تكون اللغة التبتية بدائية للغاية ولا تترك سوى هامش ضئيل للتعبير عن التفاصيل.
لا تسمح اللغة التبتية بالتعبير عن نطاق واسع للغاية من المعاني إلا عند وصف الأمور الروحية وغير المادية. سمعتُ ستة مصطلحات تبتية مختلفة على الأقل لترجمة كلمة "hermit" الإنجليزية.* أما بالنسبة لمفاهيم مثل "meditation" أو "spirituality"، فهناك مفردات ضخمة. في الأمور الروحية، تتطلب العديد من الكلمات التبتية جملة كاملة لنقل معناها إلى الإنجليزية، ولكن الأمر يختلف تمامًا فيما يتعلق بالأمور المادية. ففي كثير من الأحيان، قد تتطلب كلمة إنجليزية واحدة عشرات الكلمات التبتية لنقل فكرة تقريبية عن معناها.
لم يكن من المجدي محاولة شرح الآلات ووسائل الراحة الغربية المعقدة للشاب التبتي. لذا بدأتُ بالتعقيدات الأبسط، وذكرتُ التدخين في المقام الأول. وحتى مع ذلك، كان الأمر صعبًا بما فيه الكفاية. فبما أن التدخين غير معروف في معظم أنحاء التبت، فلا توجد كلمة تبتية تُقابله.
قلت حينها: "غالباً ما يتبنى البيض عادة وضع مداخن صغيرة في أفواههم ونفخ الدخان من أنوفهم".
ضحك كي شو خا رو بحرارة ثم سأل:

♦ غسانس با، جوم تشن، بداج شرون، بسام جتان با، ناليور با،و res-pa / ربما يحاول القارئ حفظ هذه المصطلحات الستة عن ظهر قلب ليحصل على فكرة عن مدى صعوبة تعلم اللغة التبتية.
+ على سبيل المثال، تعني الكلمة التبتية dondenpai-denpa "نوع الوعي الذاتي الذي يعطي المرء تصورًا خاطئًا عن القيمة الحقيقية للأشياء".
"لكن كيف يمكنهم إبقاء المدخنة في أفواههم؟"

أجبتُ: "إنها مدخنة صغيرة يا كي شو خا رو، ليس من الصعب إبقاؤها في الفم على الإطلاق."
وقال: "مع ذلك، أنا متأكد، على الرغم من صغر حجمها، أنها تتساقط باستمرار".
سألتُ بدهشة: "لماذا؟"
"حسنًا، إذا وضع أحدهم مدخنة صغيرة في فمه ونفخ الدخان من أنفه، فلا بد أنه سيهتز من الضحك لدرجة أن المدخنة ستسقط من فمه."
"لا يا كي شو خا رو،" لاحظت، "البيض لا يضحكون أبدًا عندما يضعون المداخن في أفواههم."
رفض كي شو خا رو تصديقي رفضاً قاطعاً. كل ما قدمته له لإقناعه بخلاف ذلك كان يكرره مراراً وتكراراً.
""دسون با جين، دسون با جين."]
قلتُ بعد محاولات إقناع فاشلة: "اسمع يا بني، عندما يعتاد الناس على الأشياء الغريبة، يتوقفون عن الضحك عليها. لديكم هنا في التبت أشياء غريبة كثيرة لا تضحكون عليها أبدًا. لقد كانت موجودة لديكم لقرون، لكنكم لا ترون جانبها المضحك لأنها استمرت لفترة طويلة لدرجة أنكم اعتدتم عليها. يكاد جميع الناس يعيشون ويفكرون بشكل روتيني."
ثم تحدثنا عن التبت لساعات طويلة. كان الصبي ذكيًا جدًا وملاحظًا بارعًا. أظهرت ملاحظاته القليلة عن أبناء وطنه فهمًا عميقًا وألقت بظلالها على كل شيء.¬
"لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً."
مطاردون من قبل قطاع الطرق التبتيين 29يسلط الضوء بشكل كبير على الأوضاع في التبت وعقلية التبتيين.
وضع كي شو خا رو ثقة كبيرة بي وعاملني كصديق ربما يعرفه منذ عشر سنوات. وفجأة سألني:
"أخبرني، هل يختلف الأولاد البيض عني كثيراً؟"
"لا،" أجبت، "ليس كثيراً. الأولاد متشابهون إلى حد كبير في جميع أنحاء العالم. معظمهم مليئون بالحماس والإخلاص."
"والبالغون؟"
قلت بحزن: "في كثير من الحالات، يتضاءل حماسهم وإخلاصهم مع مرور السنين".
هل يختلف البالغون اختلافاً كبيراً في مختلف البلدان؟
"نعم، جداً."
"لماذا ؟"
حاولت أن أوضح له أن انعدام الحماس والإخلاص يتجلى في العديد من الطرق المختلفة، والتي تختلف اختلافًا كبيرًا، في حين أن الإخلاص والبساطة لا يتركان مجالًا للتنوع، ولهذا السبب كان الأولاد متشابهين جدًا في جميع أنحاء العالم؛ لكن معرفتي باللغة التبتية كانت محدودة للغاية بحيث لم أتمكن من جعل الصبي يفهم بالضبط ما كنت أقصده.
"أود مقابلة فتيان بيض"، قال كي شو خا رو فجأة.
قلت: "إذا كنت مفيداً جداً لي خلال رحلاتي هنا في التبت، فقد آخذك معي إلى بي-/إن-با".
لم يكن لحماسه حدود.
"هل لغة البي-لينز* صعبة للغاية؟"
أجبتُ: "لا، الأمر في غاية السهولة".
♦ البيض.
كم كان تعلم اللغة التبتية صعباً للغاية بالنسبة لي.

قلت: "بالمناسبة، هناك العديد من لغات بي-لين، ولكن واحدة منها على الأقل، وهي الإنجليزية، معروفة في جميع أنحاء بي-لين-با".
"ماذا تعني كلمة 'واحد' في أكثر لغات البي-لين فائدة؟"
أجبت: "واحد".
"فان"، كررها (كلمة "فان" تعني "القوة" باللغة التبتية). "فان، فان، فان... الأمر بسيط للغاية. لن أنساه".
في أقل من ساعة، تعلم الصبي الذكي 24 كلمة إنجليزية. تعلم كلمة "go" بتذكر الكلمة التبتية mgo أو^ (رأس)، وكلمة "come" بتذكر sko^ أو kom (عطش)، وهكذا.
لقد كان مجتهداً للغاية في عمله، وأثقل كاهلي بالكثير من الجهد، حتى شعرنا بالتعب بعد ساعة تقريباً. وخلال حديثنا، كنا نسير طوال الوقت في هواء الجبل الرقيق بسرعة تقارب أربعة أميال في الساعة.
ثم عاد إلى مشكلة الأولاد البيض. ويبدو أن هذا الموضوع كان يثير اهتمامه بشكل خاص.
سألني: "أخبرني، إذا جاء فتى أبيض إلى التبت، فما الذي سيضحك عليه؟"
"حسنًا، ربما بسبب خوفك من الأشباح."
توقفنا لتناول بعض الطعام.
قال بعد أن بدأنا نتناول دقيق الشعير غير المطبوخ، والذي ابتلعه بشجاعة: "يبدو أن الجميع هنا يخافون من الأشباح. حتى قطاع الطرق، وهم رجال شجعان في العادة، يخافون منهم. إنهم يملؤون حتى أكوام الروث بالأرواح الشريرة. لقد قُتل أخي الصغير على أيديهم."¬
"غا-^ غ؟"*سألت.
"طرقت الأرواح الشريرة باب منزل والديّ ليلاً. كان الصبي الصغير المسكين المسمى ناندوكيود لا يزال نصف نائم. وهكذا سيطرت عليه الشياطين. أصيب بالحمى ومات بعد ذلك بوقت قصير."
وبينما كان يفكر في أخيه الصغير، كشفت عيناه عن شغف روحي عظيم وقدرة هائلة على المعاناة. بدا مختلفًا تمامًا عن كثير من التبتيين الآخرين الذين بدوا لي عاجزين عن مثل هذه المشاعر العميقة.
سأل بعد صمت قصير: "ألا تنزعج أبدًا من الأرواح الشريرة؟"
أجبتُ: "لا".
"لماذا ؟"
"ربما لأنني لا أخاف منهم."
فجأةً أمسك الشاب التبتي بذراعي وأشار شمالاً، إلى حيث أتينا للتو. وعلى مسافة تزيد قليلاً عن ميل، كانت مجموعة من الناس تتحرك نحونا.
^t"^ ^Qy^gpبكى.
أنهينا طعامنا وواصلنا المسير جنوبًا. لم يكن قطاع الطرق على ظهور الخيل، وكانوا لا يزالون بعيدين عنا. لذا كنت آمل أن نتمكن من الفرار بالمسير بأقصى سرعة ممكنة.
لكن كلما أسرعنا، زادت سرعة ملاحقة قطاع الطرق لنا. لقد كانت تجربة غريبة للغاية أن نُطارد من قبل قطاع الطرق في أراضٍ غير مأهولة. ما الذي قد يدفع عصابة من اللصوص إلى عبور هذا الجزء القاحل من التبت حيث لا يسكنه حتى البدو الرحل؟
تابع قطاع الطرق آثار أقدامنا بصبر.
♦ "كيف؟"
تفضل بالدخول.

ت "روبن الأول"
حافظنا على وتيرة سريعة، وعند حلول الليل، وعلى الرغم من كل جهودنا، لم يزد تقدمنا إلا قليلاً إلى ميل ونصف.
إذا كان اللصوص ينوون ملاحقتنا ليلاً، فسيتعين عليهم إشعال المشاعل لرؤية آثار أقدامنا. طالما لم يكن هناك ضوء مرئي من بعيد، كنا بأمان حتى الفجر، ولكن نظراً لإرهاقنا الشديد، اضطررت أنا والفتى إلى التناوب على المراقبة طوال الليل.
كان من الضروري بالتأكيد التضحية بنصف ليلة من الراحة بعد المشي لمسافة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ميلاً في اليوم السابق.
قبل شروق الشمس بقليل، انطلقنا مجدداً. وبعد ربع ساعة، رأينا اللصوص مرة أخرى من بعيد. لم تكن هناك نباتات في المنطقة، فكانت آثار الأقدام واضحة للغاية، وسمحت طبيعة الأرض المتموجة برؤية الناس يقتربون من مسافة بعيدة. سرنا بأقصى سرعة ممكنة، ولكن كلما أسرعنا، زادت سرعة قطاع الطرق. وبحلول الظهر تقريباً، امتد تقدمنا إلى ما يقارب ميلين، ومن حين لآخر اختفت العصابة تماماً عن الأنظار. حان الوقت لمحاولة تضليل اللصوص.
عندما وصلنا إلى بحيرة صغيرة مالحة في منخفض، دخلنا البحيرة وسرنا لبعض الوقت بموازاة الشاطئ. ثم قفزنا قفزة عالية، ولمسنا الأرض بعيدًا عن خط الماء، وانطلقنا بأقصى سرعة بزاوية قائمة على اتجاهنا السابق. وعندما وصلنا إلى كومة من الحطام، اختبأنا خلفها لنستريح قليلًا.
وبعد حوالي نصف ساعة وصل قطاع الطرق إلى
البحيرة. رأوا على الفور أننا دخلناها، وبدأوا يطوفون حولها بحثًا عن المكان الذي غادرنا منه. من المكان الذي كنا نختبئ فيه، استطعنا رؤيتهم بوضوح تام، إذ كان الهواء صافيًا كصفاء الكريستال.
شعر كي شو خا رو بالرعب عندما تعرف على اللصوص. كانوا عصابته التي هرب منها. تعرف على أخيه الذي كان يأتي في المرتبة التالية للزعيم. من الواضح أن اللصوص قرروا استعادة زميلهم، ولهذا السبب كنا مطاردين في مناطق غير مأهولة تمامًا.
كان الوضع بعيدًا كل البعد عن أن يكون مريحًا. ربما كان قطاع الطرق الآخرون، الذين ليس لديهم سبب خاص لملاحقتنا سوى رغبتهم في سرقتنا، قد تخلوا عن المطاردة بمجرد أن فقدوا أثرنا؛ ولكن في هذه الحالة، كان من المتوقع ألا يدخر قطاع الطرق أي جهد للقبض علينا.
رفض كي شو خا رو رفضاً قاطعاً العودة إليهم طواعيةً. علاوة على ذلك، وبعد أن علم أنني أبيض البشرة، أدرك أن أي تواصل إضافي مع العصابة قد يُسبب لي مشاكل خطيرة للغاية.
سار قطاع الطرق بمحاذاة خط الماء، ومروا بالمكان الذي قفزنا منه من البحيرة. استغرقهم الأمر قرابة ساعة للدوران حول البحيرة قبل أن يدركوا أنهم كانوا في حيرة من أمرهم، فبدأوا بالدوران حول البحيرة المالحة في دائرة أوسع.
ابتهج كي شو خا رو، الذي بدا عليه الضجر الشديد من عمله كقطاع طرق. كان مصممًا على الفرار من العصابة بقدر ما كنتُ مصممًا أنا. بعد ربع ساعة، كان قطاع الطرق
كانت المسافة 34 كافية لتمكيننا من مغادرة المكان الذي كنا نختبئ فيه. زحفنا إلى التلة التالية، التي كانت على بعد بضع مئات من الأمتار، وكان لون خيمتي الترابي الذي ألقيته فوقنا في صالحنا للغاية.
ما إن تجاوزنا التلة حتى انطلقنا شرقاً بأقصى سرعة، نركض بضع مئات من الأمتار بين الحين والآخر. توقفنا لفترات قصيرة فقط لتناول الطعام، وعندما حلّ الليل كنا نتناوب على الحراسة.
أيقظني الصبي في النصف الثاني من الليل. كان هناك وهج خافت للنار مرئياً في الأفق.

ربما أدرك اللصوص أننا كنا أكثر دهاءً ونشاطًا من أن يُقبض علينا إلا إذا طاردونا ليلًا ونهارًا. بعد أن طافنا حول البحيرة للمرة الأولى، أدركوا أننا كنا ماكرين بما يكفي لنجعلهم يقطعون أربعة أميال عبثًا، مما منحهم ميزة هائلة. بدأوا يطوفون حول البحيرة مرة ثانية في دائرة أوسع بكثير حتى عثروا على أثرنا الجديد، وعندما دلّتهم آثار أقدامنا على أننا كنا نسير ونجري بالتناوب، فهموا أنهم لن يتمكنوا من الإمساك بأمثالنا من الأقوياء إلا إذا قرروا التضحية براحة ليلة من أجل مواصلة المطاردة.

واصلنا المسير في الظلام، والنجوم ترشدنا. بدا كي شو خا رو، رغم إرهاقه، متقبلاً الأمر بروح رياضية، وواجه الاختبار بشجاعة فائقة. فإلى جانب مشاعره الجياشة وذكائه الحاد، بدا أنه يتمتع بإرادة قوية.¬

بدأ يتحدث. فأوضحت له أننا نخوض معركة يائسة ولا يمكننا تحمل خسارة أدنى قدر من قوتنا البدنية، فكل سعة رئتينا ضرورية للمضي قدماً بأسرع ما يمكن.

بمجرد أن وصلنا إلى مكان مناسب لمحو آثار أقدامنا وتضليل مطاردينا، غيرنا اتجاهنا فجأة وانطلقنا جنوباً.

وبعد نصف ساعة أشرقت الشمس.

بدأت قدما الصبي تظهر عليهما بعض البثور. ورغم شجاعته، إلا أن الإرهاق الشديد قد أثر عليه بشدة. فالاعتماد في غذائه على دقيق الشعير غير المطبوخ، والمشي والجري لمسافة خمسة وأربعين ميلاً في اليوم، وعدم الحصول إلا على نصف ليلة من الراحة، كل ذلك كفيل بتأثيره حتى على الرجل القوي السليم.¬

"غا-^وغ تسو-تشي؟" سأل مراراً وتكراراً. وبعد برهة أضاف بحزن:

"يجب ألا تقع أسيراً لدى اللامات. أخي من طائفة الميبانبو، ولكن إذا تم القبض علينا واكتشف أنك شخص أبيض، فقد يحدث الأسوأ وقد يسلمك إلى الكهنة."

بعد استراحة قصيرة، واصلنا المسير دون توقف لعشر ساعات تقريبًا. ازدادت بثور قدمي الصبي، لكنه رفض التوقف رفضًا قاطعًا. عندما عرضت عليه أن أحمله على ظهري، عضّ على شفتيه وقال بحزم: "أنا، أنا، أنا."^

ثم اقتربت منه وأمسكته لأضعه على ظهري بالقوة، إذ رأيت بضع قطرات من الدم تلون آثار أقدامه؛ لكنه قاوم بشدة، واضطررت في النهاية إلى التخلي عن محاولة الوصول إليه.

لقد أصبح وضعنا بالغ الخطورة. عند وصولنا إلى قمة سلسلة جبال شاهقة، رأينا قطاع الطرق، الذين كانوا يشكلون جزءًا كبيرًا من المسافة الفاصلة بيننا، ولحقوا بنا مجددًا على بُعد حوالي ميلين ونصف.

ولا بد لي من التوضيح هنا أنه في سهول شمال ووسط التبت القاحلة، الخالية من الغطاء النباتي، حيث الهواء نقيٌّ كصفاء الكريستال، يمكن رؤية الأشخاص القادمين من مسافة بعيدة على بُعد أميال عديدة، ما لم يكونوا مختبئين خلف سلسلة جبال.

كان من الواضح أننا سنُقبض علينا في الليلة التالية إذا قرر اللصوص مواصلة المسير على ضوء المشاعل، وهو أمرٌ مُرجّحٌ للغاية. علاوةً على ذلك، حتى لو تمكّنا من تجنّبهم بفضل حظٍّ شبه معجزة، فإنّ مؤننا الغذائية كانت تنفد بسرعة، وسيتعين علينا البدء بتقليص حصص الطعام في غضون يوم أو يومين.

ثم جاءت الطبيعة نفسها لنجدتنا.

وبينما كنا نسير عبر منخفض في وقت متأخر من بعد الظهر، دوى فجأة دويٌّ هائل كأن مئة قطار سكك حديدية مرت تحت الأرض في الجوار. وتساقطت صخور ضخمة وحطام من كل جانب. كان هذا أول زلزال من سلسلة زلازل واجهتها في التبت خلال الأيام القليلة التالية. استمر لعدة دقائق وكان عنيفًا لدرجة أنه كان من الصعب الحفاظ على التوازن.

تفادى كي شو خا رو الحجارة بهدوء وبدا أنه معتاد تمامًا على هذا النوع من الأمور، لكن المزيد والمزيد من الدماء ظهرت في آثار أقدامه.
من المحتمل أن يكون الزلزال قد أثر على منطقة واسعة للغاية، مما أدى إلى محو آثار أقدامنا بشكل جذري. على الأرجح، فقدت العصابة أثرنا.
ولأننا كنا منهكين للغاية، قمنا بنصب الخيمة بأسرع ما يمكن وسرعان ما غطنا في النوم.
عندما استيقظت، كان ذلك على الأرجح حوالي منتصف النهار في اليوم التالي. كان المطر يهطل بغزارة. كانت السماء ملتفة حولي. اختفى كي شو خا رو.
نظرتُ من النافذة. لم يكن هناك أحد في الأفق. صرختُ في كل الاتجاهات. لا جواب. ماذا حدث للصبي؟
خرجتُ تحت المطر لأتفقد المكان. كان المطر الغزير قد محا جميع آثار الأقدام. لم يكن لدي أدنى فكرة عن مكانه. ولأن بعض أغراضه كانت لا تزال في الخيمة، كان من المستحيل التكهن بما إذا كان ينوي العودة عندما غادرها أم لا.¬
انتظرت لساعات، وكنت أخرج بين الحين والآخر، وأصرخ باسمه بأعلى صوتي. لم يكن يُسمع شيء سوى صوت المطر الغزير المتواصل.
حلّ المساء، ولم يكن الصبي قد عاد بعد.
ربما خرج الرجل المسكين لفترة وجيزة خلال الليل، عازماً على العودة فوراً، لكنه ضلّ طريقه وتاه في الصحراء. يحدث هذا أحياناً للتبتيين. يعتقد التبتيون أن تأثير الشياطين الخفية قد يُفقد الرجال مؤقتاً حاسة التوجيه عند مغادرتهم خيامهم في الصحراء، فيسيرون في الاتجاه الخاطئ ولا يستطيعون العودة إلى خيامهم.¬
8 الظلام فوق التبتفرحة عظيمة للشياطين وهم يشاهدون ضحيتهم وهي تذهب إلى موتها في الصحراء.
لو ارتكب الصبي المسكين خطأً فادحاً بالضياع، لكان مصيره الموت المحتوم. لم يكن يملك المعرفة الجغرافية ولا خبرة رجلٍ اجتاز صحاري العالم وحيداً، لكان سيدور في حلقات مفرغة ويموت جوعاً وبرداً.¬
طوال الليل كنت أراقب الوضع بحذر. وفي النصف الثاني من الليل توقف المطر، وبعد ذلك بوقت قصير أشعلت ناراً صغيرة لأرشده إلى الطريق في حال ضل طريقه.
حلّ الصباح ولم يكن كي شو خا رو قد عاد بعد.
كنتُ أعلم أن من واجبي الانتظار، رغم أن كل دقيقة من وقتي ثمينة. ستُغطى شمال التبت بالثلوج في غضون شهرين، مما يجعل عودتي مستحيلة إن ترددتُ طويلًا؛ وكان الجزء الأكبر من العمل الذي تعهدتُ بالقيام بهذه الرحلة من أجله، والذي تحملتُ كل ما يصاحبه من مشاق وحرمان، لا يزال ينتظرني. كما أدركتُ أنه من المستحيل عليّ البقاء متخفيًا في تلك البلاد المحظورة طوال فصل الشتاء دون أن يُكشف أمري.
الآن، وبعد جهود ومصاعب هائلة، أصبحت أخيراً على بعد بضع مئات من الأميال من هدف رحلتي - الأديرة الغامضة والنساك - كان من واجبي التوقف لبعض الوقت من أجل انتظار هذا الصبي المسكين التائه في سهول التبت القاحلة.¬¬
كل ما استطعت فعله من أجله هو الانتظار لعدة أيام، والمراقبة ليلاً ونهاراً، وإشعال شمعة صغيرة مطاردون من قبل قطاع الطرق التبتيين59 ناراً خلال ثلاث ليالٍ متتالية لإرشاده إلى الطريق.

لم يكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجوده، وأدركت تماماً أن تجوالي في تلك الأراضي غير المأهولة لن يزيد من فرصتي في العثور عليه عن رجل يبحث عن دبوس صغير في كومة قش. علاوة على ذلك، كان مخزون طعامي ينفد بسرعة كبيرة.
لم يكن بوسعي سوى الإشارة إلى وجودي ليلاً. حتى أنني ضحيت بجزء صغير من معداتي لأبقي النار الصغيرة مشتعلة، والتي كنت أشعلها كل ساعة لعدة ليالٍ. في النهار، لم يكن بوسعي فعل شيء سوى الانتظار. لو غادرت محيط الخيمة، لكنت سأخاطر بأن يجدني الصبي غائباً عند عودته. لم يكن يجيد القراءة، لذا لم أستطع ترك رسالة.
بعد ثلاثة أيام انطلقت جنوباً، وأنا في حالة شبه جوع، وقلبي يملؤه حزن لا متناهٍ.¬
لا يزال مصير كي شو خا رو لغزاً حتى يومنا هذا. هل ضلّ طريقه حقاً، فمات موتاً بطيئاً مروعاً من الجوع والبرد؟ أم أنه تركني طواعيةً لأنه شعر أن وجوده يشكل خطراً إضافياً عليّ؟ أم أن قطاع الطرق عثروا على أثرنا في النهاية وأخذوا الصبي معهم دون أن يرغبوا في إيذائي، لأنني أنقذت حياة أحد أفراد عصابتهم قبل أيام؟
مع ذلك، وبالنظر إلى كل شيء، يبقى الخيار الأول -للأسف- هو الأكثر احتمالاً.
ما الأفكار التي ربما خطرت ببال هذا الصبي الذكي والطيب القلب أثناء تجواله؟
هناك في عزلة قاحلة، يموت ببطء من الجوع والتعرض للعوامل الجوية؟
هل يُعقل أن تكون تلك الوحدة الرائعة من الذكاء المتألق، والمشاعر الجياشة، والإرادة القوية، المتخفية في غلاف مادي، والتي قابلتها في الشكل المادي لـ"كي شو خا رو"، مجرد نتاج عشوائي للوراثة والبيئة؟
هل من المحتمل أنه عندما قُطعت هذه البرعم، التي كانت على وشك أن تتفتح زهرة، بفعل القدر وسقطت ميتة على أرض الصحراء، كان الهدف الأسمى لهذه الروح هو الفناء؟
ربما بعد سنوات عديدة، سيعثر أحد الرحالة المنعزلين على كومة من العظام المتبيضة في صحاري غرب التبت القاحلة. هل هذا كل ما تبقى من كي شو خا رو؟

الفصل الثاني
نزول الشياطين

عدد كبير جدًا من الأديرة التبتية - وربما أكثرها غموضًا - لم يزرها البيض قط. وهي تختلف اختلافًا كبيرًا في الحجم والموقع وموقف الرهبان من الزائر، الذي يُعامل في معظم الحالات كبقرة حلوب مرحب بها، لا تتمتع إلا بقدر ضئيل من التمييز والذكاء، وبالتالي فهي عرضة للاستغلال التام، بغض النظر عما إذا كان من طائفة "تشوغبو" (الرهبان التبتيين) أم لا. أو فقير.

بعض الأديرة، مثل دير تاشي-غيمبي، صغيرة جدًا ولا تتسع لأكثر من ثلاثمائة راهب تقريبًا؛ بينما بعضها الآخر أكبر بعشر مرات على الأقل. تقع بعض الأديرة، مثل دير دسوغ-تشن، في أقصى شمال البلاد في مناطق شبه خالية من السكان، لكن العديد منها يقع في الوديان الخصبة جنوب التبت.

يختلف عدد الحجاج اختلافاً كبيراً باختلاف أوقات السنة. وتُشكّل المهرجانات، بطبيعة الحال، عامل الجذب الأكبر، وفي تلك المناسبات تسود أجواء من البهجة والسرور.¬

في تناقض غريب مع تعاليم البوذيين، الذين يؤكدون أن الحياة كلها سيئة بطبيعتها وأن الهروب من دوامة التناسخ وجميع أشكال الوجود المادي هو الهدف الأسمى للبوذيين.

ليس بعيدًا عن المكان الذي درست فيه تمارين التأمل المختلفة التي يمارسها اللامات، سمعت أن أحد أشهر كهنة التبتيين، وهو ما يسمى بـ "سونغمي"، كان على وشك زيارة أقرب دير، وأن عدة آلاف من الحجاج كانوا يتدفقون إلى المكان لمشاهدة الشياطين وهي تنزل إلى الأرض مؤقتًا لتستحوذ على جسد الكاهن.

عندما وصلتُ إلى الدير، كان من السهل أن أُدرك أن حدثًا استثنائيًا على وشك الحدوث. تدفقت حشود غفيرة من الحجاج إلى البوابات من كل حدب وصوب. نصب الباعة المتجولون أكشاكهم لبيع الطعام واللوازم الضرورية الأخرى، وسادت أجواء تُذكّر المرء بسوقٍ كبير في إحدى بلدات الغرب الأمريكي. كان اللامات، الذين بدوا في غاية النشاط، يرتدون ملابس زاهية، ويتنقلون في أرجاء المكان، وتنتشر أعلام المعبد وغيرها من الزينة في كل مكان.¬

كان من المتوقع أن تنزل الشياطين إلى جسد السونغمي أمام حشد غفير. علاوة على ذلك، قرر اللامات تقديم عرض مسرحي ديني في اليوم التالي لجذب الانتباه. وتستمر العروض المسرحية في التبت لفترة أطول بكثير من نظيرتها في الدول الغربية، وتُجرى عليها بروفات دقيقة للغاية.

من حين لآخر، كانت الحشود التي تتحرك جيئة وذهاباً في الممرات الضيقة تحدق جيداً عندما يكون المرء

نزول الشياطينذهب 43 من اللامات إلى البروفة مرتدين الأردية والأقنعة الغريبة التي سيظهرون بها في العرض. بعد انعطافي مباشرةً، التقيت بثلاثة لامات يرتدون أردية مخططة وأقنعة ضخمة تخفي وجوههم. وكان كل منهم يحمل سيفًا في يده اليمنى. أما كاميرتي الصغيرة، التي أستطيع من خلالها التقاط صور بحجم ثلثي بوصة في بوصة واحدة تقريبًا، فكانت مخبأة في الكم الأيسر لملابسي التبتية. ولم أستطع مقاومة إغراء رفع ذراعي قليلاً لالتقاط صورة عندما كانت اللاما على بعد أمتار قليلة. كان

الأمر محفوفاً بالمخاطر، ولكنه كان يستحق العناء، فمع أن الصورة الصغيرة الملتقطة في مثل هذه الظروف نادراً ما تسمح بتكبيرها بشكل كافٍ، إلا أنها مع ذلك تُعد وثيقة ذات قيمة علمية كبيرة.¬

بما أن لا أحد من اللامات ولا أي من التبتيين الكثيرين الذين كانوا يملؤون الممر لم يلاحظوا شيئًا، فقد تجرأتُ قليلًا. بعد بضع دقائق، وصلتُ إلى ساحة صغيرة حيث توقف لاما يؤدي عرضًا، وكان حشد صغير من التبتيين يحدقون به بفضول. كان يرتدي قناعًا على شكل جمجمة، ورُسمت أضلاع على صدره. من الواضح أنه كان يقصد به تمثيل هيكل عظمي يمشي في العرض. لم يبدُ أنه منزعج من نظرات الحشد الفضولية، بل إنه اتخذ وضعيةً ما ليتمكنوا من فحصه بدقة. حافظ الحشد على مسافة محترمة، ومع سطوع الشمس الشديد، لم أستطع مقاومة إغراء رفع ذراعي اليسرى مرة أخرى لالتقاط صورة أخرى. ومع ذلك، هذه المرة نجوتُ بأعجوبة. سمع اللاما وعدد قليل من التبتيين الآخرين...¬

نقرة خافتة. حتى أن "الهيكل العظمي" اندفع نحو الحشد الصغير. لكنني كنت قد وضعت يديّ خلف ظهري بهدوء وبشكل طبيعي. تابع اللاما سيره وهو يهز رأسه، وبدأ الحشد التبتي على الفور يتحدث عن أصوات غريبة تصدرها الأشباح!

بعد نصف ساعة، بدأت الحشود بالتوجه نحو الفناء المركزي للدير، حيث كان من المقرر أن يدعو أحد أشهر كهنة التبتيين الشياطين للنزول إلى جسده أمام جمع غفير. ورغم أنني كنت أحرص على تجنب الاختلاط بالحشود قدر الإمكان، إلا أنني أدركت استحالة الانعزال، إذ كان من المتوقع أن تكتظ كل زاوية من زوايا الفناء والمعارض بآلاف الحجاج الذين قدموا إلى الدير خصيصًا لهذه المناسبة، إضافةً إلى مئات اللامات المقيمين هناك.

توجهتُ إلى الفناء مباشرةً بعد أن حيرتُ تمثال اللاما "الهيكلي" بنقرة الكاميرا الصغيرة، وتمكنتُ من الحصول على مكانٍ جيدٍ في المقدمة مباشرةً، حيث استطعتُ متابعة الأحداث عن كثب. ولمدة ساعة كاملة بعد ذلك، استمرّت الحشود بالتوافد إلى الفناء والعديد من المعارض من جميع الجهات. ومع اقتراب موعد الحدث، تحوّلت ضحكات وأحاديث الجماهير تدريجيًا إلى ترقبٍ شديد.

وأخيرًا وصل السونغمي، برفقة حشد كبير من اللامات ذوي الرتب العالية، ودخل في موكب احتفالي مهيب. كان في منتصف العمر، قوي البنية، ويرتدي ملابس زاهية اللون ذات جودة ممتازة. بدا في غاية الثراء. ومن الحقائق المعروفة أن تجارة السونغمي

نزول الشياطينربما يكون هذا المنصب هو الأعلى أجرًا في التبت. أخبرني ناربو، التبتي الثري الذي صادقته لاحقًا، أن دخل أشهر كهنة السونغمي في التبت يعادل دخل آلاف العائلات البدوية. وقد يعادل الأجر المدفوع لأحد كهنة السونغمي عن جلسة عامة واحدة الدخل السنوي لخمسين عائلة بدوية.

تقدم العراف ببطء واحتفال نحو مقعده وجلس على الطريقة الغربية، لكن حشد اللامات ظلوا واقفين طوال الحفل - باستثناء عدد قليل من اللامات المسنين ذوي الرتب العالية الذين جلسوا على الطريقة التبتية على مقاعدهم.¬

بدأت الأجراس تدق، وسار موكب من الكهنة حول معبد الرخاء حاملين مبخرات، تُصنع في أغلب الأحيان من الجزء العلوي من جماجم بشرية. كان الترقب شديدًا بين الحضور، والجميع يراقبون الكاهن الذي انزلق تدريجيًا إلى حالة من النشوة. شحب وجهه، وتصلبت أصابعه، وكان يهتز من حين لآخر بتشنجات من رأسه إلى أخمص قدميه.¬

لقد حانت اللحظة الحاسمة. بدأت الشياطين بالنزول إلى جسده. نفخ اللامات في الأبواق معلنين وصولهم.

تزايدت تشنجات العرافة دقيقةً بعد دقيقة، وتزايدت حدتها. وفي النهاية، تمايل جسده كله إلى الأمام والخلف كما لو كان يُدفع من قبل كيانات غير مرئية ذات قوة خارقة.
ازداد حماس الحشد لدرجة أنه لم يعد بإمكانه التزام الصمت.
سرعان ما تحول ترقبهم المحموم إلى صيحات دهشة متقطعة ونوع غريب من الهياج الديني.
"Lha shon"قال رجل تبتي مسن كان يقف بالقرب مني.
لم أفهمه. "لها" تعني إله أو شيطان، و"شون" تعني ركوب. "الشيطان يركب". ماذا كان يقصد بذلك؟ بينما كانت تشنجات الشمس تزداد عنفًا، ويُفرغ الحشد مشاعره بالصراخ والإيماءات، تساءلتُ عن معنى عبارة "يركب الشيطان"، ثم فهمتُ فجأة. لقد نزل الشيطان إلى جسد العراف ليركبه، تمامًا كما يفعل الفارس الذي يمتطي حصانًا.
وصل السونغمي الآن إلى حالة من الهياج الشديد لدرجة أن الطبيب الغربي كان سيشعر ببعض القلق عليه. ربما كان المرء ليخشى أن يعض لسانه. أو يسقط أرضًا كضحية لسكتة دماغية. كان وجهه أحمر داكنًا ومنتفخًا كما لو أن أحدهم لفّ خيطًا حول عنقه ليخنقه. سال الدم من فمه وأذنيه وأنفه، وبدأ يئن كحيوان مفترس.
دُقّت الأبواق مرة أخرى، وحثّ لاما الحشد على التزام الصمت.
بدأ الجزء الختامي من الحفل.
لقد استولى الشيطان تمامًا على جسد السونغمي، وقد حانت اللحظة
نزول الشياطين 47طرحوا عليه أسئلة. اقترب منه عدد من اللامات حاملين قصاصات ورق كُتبت عليها الأسئلة المختلفة. أخذ العرّاف القصاصات واحدة تلو الأخرى، يفركها على رأسه. أجاب على كل سؤال بصوت خافت لم يسمعه إلا اللامات المحيطون به. كانت الإجابة على أحد الأسئلة على الأقل ممزوجة بآهات كثيرة لدرجة يصعب معها فهمها. مع ذلك، سجّل اللامات الإجابات بدقة في جميع الحالات.
أتساءل كيف سجّلوا تلك الآهات وما هو تفسيرهم لها؟
تحظى تماثيل سونغمي التبتية باحترام أكبر بكثير من تماثيل باو أوس البسيطة. الذين يتمتعون بنفس القدرة على الدخول في حالة من الغيبوبة والإجابة على الأسئلة بينما يسيطر عليهم هاجس الشياطين.
يرى حكماء التبت أن التخلي عن الجسد لأي غرض كان، لكي تستحوذ عليه الكائنات الخفية مؤقتًا، يُعدّ من أعظم الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الإنسان بحق روحه. فالشرارة الإلهية في الإنسان، أي روحه، تُهان وتُعذب بشدة على أيدي هذه الكائنات. إذا فارقت الروح هذا الكائن، يبقى الإنسان بلا روح إلى الأبد، ويدخل في دوامة الحياة الهابطة، التي تقوده إلى العدم والفناء التام، عبر مسار التطور برمته. وكل أنواع الحيوانات والنباتات البشعة ما هي إلا تجسيدات لهذه الكائنات الساقطة.¬
يجب على السونغمي في التبت أن يعيشوا حياة غير طبيعية من أجل الاحتفاظ بالقدرة على الهوس بـ آلهة أم شياطين؟ لا يُسمح لهم بممارسة الجنس. يمتنعون طواعيةً عن العديد من ملذات الحياة ليتمكنوا من مواصلة أعمالهم. يجب عليهم اتباع نظام غذائي خاص. أما عن طعامهم، فقد سمعتُ رواياتٍ مختلفة، ولكن يبدو أن البيض وأنواعًا مختلفة من اللحوم ممنوعةٌ منعًا باتًا.
عند النظر إلى الجانب المادي للأمور فقط، يمكن مقارنة السونغمي التبتيين ببعض المرضى في المصحات العقلية الغربية الذين يُطلق على مرضهم علميًا اسم "ازدواجية الشخصية". لا يمكن أن يتفق عالم الخوارق وأخصائي الأعصاب المادي على هذه المسائل، لأنهما يتناولان المشكلة من منظورين متناقضين. يعلم أخصائيو الأعصاب يقينًا أنه في جميع حالات الأمراض العقلية تقريبًا، يمكن العثور على عيوب جسدية مقابلة، وبالنسبة لهم، فإن الاضطراب العقلي هو نتيجة للاضطراب الجسدي. أما

عالم الخوارق فيتبنى وجهة نظر معاكسة، إذ يرى أن الاضطراب العقلي (كالوسواس القهري وغيره) هو السبب، والاضطراب الجسدي هو نتيجته. كلا من أخصائي الأعصاب وعالم الخوارق على صواب من وجهة نظره، ولا يُتوقع أن يتفقا على السبب الجذري للاضطرابات العقلية.
بعد أن أجابت العرافة على سلسلة من الأسئلة، بدأ الجزء المذهل من العرض. كان هذا الجزء مُعدًا بوضوح للحشود الكبيرة، وخاصةً لغالبية الناس الذين لم تكن لديهم فرصة كافية للاقتراب بما يكفي لرؤية وجه العرافة.
أحضر اثنان من اللاما سيفًا كبيرًا، وبدا أنهما ينحنيان تحت وطأته.
لم يسعهم إلا أن يلاحظوا بابتسامة أن اللامات المختارين لحمل السيف كانوا من أضعف وأقصر أفراد المجموعة. من الواضح أن وجود لامين يحملان سيفًا كان يهدف إلى إثارة إعجاب الحشد، وخاصة التبتيين الواقفين بعيدًا والذين لم يتمكنوا من رؤية مدى ضعف اللامين.
سُلِّم السيف رسميًا إلى السونغمي، الذي نهض وضرب الأرض بطرفه في حالة من الهياج. ثم طوى السيف بيديه العاريتين كما لو كان مصنوعًا من الشمع الساخن. بعد ذلك مباشرة، حُمِل السيف المطوي نحو الحشد، الذي تدافع عليه بجنون. استطاع الناس أن يُقدِّروا وزن السيف بنحو خمسة وعشرين رطلاً، وأن الفولاذ كان متينًا لدرجة أن أقوى الرجال لم يكن ليتمكن من ثنيه بيديه العاريتين. كان استبدال السيف الذي طواه السونغمي بسيف آخر أمرًا مستحيلاً، لأن كل ذلك جرى علنًا أمام آلاف الأشخاص. بالمناسبة، تمت دراسة حالات "الشخصية المزدوجة" التي يظهر فيها الرجال درجة غير مبررة من القوة البدنية في المصحات العقلية ومن قبل علماء الخوارق في الدول الغربية.
بدا طي السيف الثقيل وكأنه أدخل الجموع التبتية في حالة من الهياج. تندمج الحشود بسهولة في "روح جماعية" واحدة، وعندها يتوقف الفرد عن التصرف كما لو كان يتصرف بمفرده. فالحشود ليست في الحقيقة مجموع كل الأفراد الموجودين فيها، بل تبدو وكأنها كيان جديد تشكل فجأة بفعل نوع من "الروح الجماعية". إنه الإنسان يتراجع مؤقتًا.
إلى "الوعي الجماعي"، الذي يوشك الإنسان المتحضر على الظهور منه. أعتقد أن أعظم العظماء فقط، مثل شكسبير أو غوته، كانوا أفرادًا متكاملين تمامًا، وبعيدين عن إمكانية العودة مؤقتًا إلى الوعي الجماعي.
اندفع التبتيون المسالمون، الذين لم يكونوا ليجرؤوا على فعل ذلك فرادى، في هجمة محمومة للاقتراب من السونغمي، الذي كان لا يزال يتمايل جيئة وذهابًا وقد بدأ للتو في البصق بعنف في اتجاهات مختلفة.
يا له من شرف عظيم للتبتي العادي أن يبصق عليه سونغمي بينما إله أو شيطان "يركب" الأخير! أعتقد أنه لن ينسى هذا التمييز العظيم ما دام حيًا!
دفعني الحشد الهائج نحو السونغمي. صرخت النساء والأطفال، وبدا وقوع حوادث خطيرة أمرًا لا مفر منه. لكن اللامات التبتيين هيئة منظمة للغاية. ظهرت "قوة الشرطة" التابعة للدير على الفور تقريبًا، في هيئة حوالي ستين لاما من النوع الأطول والأقوى، يحملون العصي والسياط. وبعد دقيقة واحدة، تم دفع الحشد للخلف بقوة وعنف شديدين. بذل اللامات الذين يجلدون قصارى جهدهم لإظهار قوة الشرطة. لم يسلم حتى النساء والأطفال من ضرباتهم. كنتُ في أحد الصفوف الأمامية، وحاولت الانحناء قليلًا - قدر استطاعتي وسط الحشد - لحماية نفسي من سياط اللامات، وفي الوقت نفسه كنت أحاول جاهدًا حماية فتاة تبتية شابة جميلة تقف بجانبي.¬
عندما تم دفع الصف الأمامي للخلف حوالي
على بُعد عشرين ياردة من معبد سونغمي، انسحبت قوات الشرطة، وقد بدا عليها الفخر والرضا عن سرعة وكفاءة استعادة النظام. تلقت الفتاة ضربة سوط على يديها، اللتين رفعتهما أمام وجهها لحمايته،

وعلى الرغم من أنني اعتدتُ عدم التحدث داخل الأديرة التبتية وتظاهرتُ بأنني أصم أبكم من السكان المحليين، إلا أنني خالفتُ هذه العادة في هذه المناسبة الخاصة، وسألتها: "Kyod rur- mo rag؟"*
ابتسمت، وبدأنا نتحدث.
كان اسمها دولما. لقد قطعت شوطًا طويلًا من قريتها الواقعة قرب تاراتشان. انضمت هي ووالدتها إلى مجموعة كبيرة من المحاربين القدامى، وسيسافرون عائدين إلى قريتهم بعد غد. خلال الشجار، انفصلت عن والدتها وصديقاتها، لكنها ستنضم إليهن بعد انتهاء المراسم بوقت قصير.
كانت فتاة جميلة جدًا، وبعد عشر دقائق من الحديث معها، اكتشفتُ أنها ذكية بشكل ملحوظ أيضًا. للأسف، ليس كل من يتمتع بالجمال يتمتع بالذكاء. يبدو أن الطبيعة غالبًا ما تتردد في منح الكثير من المواهب لشخص واحد.¬
سألتني عن اسمي ومن أين أتيت.
قلت: "اسمي شيدي، وقد جئت إلى هنا لأبقى يومين لمشاهدة السونغمي والعرض الذي سيقام غداً".
سألت: "كم عددكم؟"
أجبت: "أسافر بمفردي تماماً".
أطلقت ضحكة مرحة، كاشفة عن أسنانها الجميلة ربما أكثر قليلاً مما كان ضرورياً حقاً.
* "هل تشعر بالألم؟"
"هذا ليس مزاحاً"، قلت. "لقد قلت الحقيقة - أنا أسافر بمفردي".
"إذن أنتِ فتاة بالتأكيد؟* فقط الفتاة تستطيع السفر بمفردها. بالمناسبة، لم أقابل فتاة قط. هل تتحدث جميع الفتيات التبتية بهذه الطريقة الغريبة؟"
قاطع حديثنا دويٌّ هائلٌ لعشرات الأبواق. توقف المغني عن الحركة وبدا كالميت. أصبح وجهه كالشمع المصفر، وكان منظره مروعاً.
سألت دولما: "هل ترغبين في مقابلة والدتي وأصدقائي؟"
قلت: "لا".
بدت عليها خيبة أمل شديدة. "لماذا؟"
قلت: "أريد إن-با".
"حتى عندما أكون بالقرب منك؟"
"لا، أنتِ استثناء." بدت مسرورة للغاية.
ألقيت نظرة فاحصة على فستانها. كان كل شيء فيها نظيفاً بشكل ملحوظ، وهو أمر نادر الحدوث في التبت.
دُقّت الأبواق مجدداً. وبعد توقف قصير، توالت نفخات سريعة عديدة، إشارة إلى أن الآلهة أو الشياطين قد رحلوا بالتأكيد.
كان الراهب محاطًا بحشد كبير من المساعدين. كان الكثيرون يقدمون له الشراب، أو يغسلونه ويدلكونه، حتى أنه لم يعد بالإمكان رؤية وجهه. لم يكن يُسمح إلا لبضعة عشرات من اللامات ومرافقيه المقربين بالوصول إليه. بقي الحشد على مسافة معينة وبدأ بالتفرق تدريجيًا.
* أشخاص من لاداخ.
سألت دولما: "هل ستعودين إلى أصدقائك الآن؟"
أجابت وهي تُصفف شعرها الجميل بعناية: "هذا ليس عاجلاً يا شيدي. إذا انضممت إليهم بعد ساعة، فسأكون في الوقت المناسب لتناول وجبتنا. أين ستقيم؟"¬

أجبت: "سأغادر الدير، وأذهب إلى الحي المحيط، وأعود غداً لحضور العرض".
"لكن أين شيدي الخاص بك؟"
ضحكت. "إنها ملفوفة حول جسدي، وكذلك بطانيتي."
"إذن تحمل منزلك ملفوفاً حول جسدك؟" علقت وهي تضحك بصوت عالٍ.
قلت: "نعم، لكن بعض أغراضي مخبأة أيضاً في الحي".
"يا لك من شخص غامض!" هكذا هتفت.¬
تدريجياً، انحرف حديثنا إلى أمور أكثر أهمية. لمدة نصف ساعة، تحدثنا عن ميلاراسبا، الذي يسميه التبتيون ميلا المختصرة، وبادماسامبهافا، الذي كتب أساطير تختلف تماماً عن أساطير ميلا اللطيفة والمبهجة، وتحتوي على أوصاف لمشاهد مروعة من أكل لحوم البشر وانحرافات لا يمكن تصورها.
ازداد دهشتي يوماً بعد يوم من مدى معرفة تلك الفتاة الصغيرة، ومدى تفوقها بشكل كبير على المستوى التعليمي لباقي التبتيين.
سألت: "هل يوجد الكثير من الـ ^bu-mo-^J^es-ma^ في قريتك ممن يعرفون بقدر ما تعرف؟"
"ربما لا"، قالت.
"من أين تعلمت كل هذا؟"
أجابت دولما: "هذا سر. لقد كان لديّ معلمون."
"هل تحب والدتك معلميك؟"
قالت: "ربما لن تحبهم، لكنها لم تقابلهم قط".
"لماذا ؟"
"لن تفهمهم، لذلك لا آخذهم إلى المنزل أبداً."
وعدتني دولما بالابتعاد عن صديقاتها في صباح اليوم التالي. ثم سنتمشى لمدة ساعة تقريباً ونذهب معاً إلى العرض في الدير.
قالت دولما: "مع السلامة. مع السلامة يا شيدي من لاداخ 1".
دوى ضحكها بمرح. تساءلت عما إذا كان هناك تعبير ساخر على وجهها عندما أضافت "من لاداخ".
عندما التقينا مجدداً في اليوم التالي، تحدثت دولما على الفور عن المخاطر التي واجهتها أثناء قضائي الليلة وحدي في خيمتي في مكان يبعد حوالي عشرة أميال عن الدير. قالت: "هناك العديد من قطاع الطرق في المنطقة. في وقت مبكر من صباح اليوم، مرّ مسافران وحيدان بمجموعتنا من الحجاج. كانا في حالة يرثى لها، فقد سُرقا معظم ممتلكاتهما. عندما رحلا، ضحكت أمي والحجاج الآخرون عليهما كثيراً."
"في العديد من البلدان الأخرى، يشعر الناس بالشفقة على من يتعرضون للسرقة - أو على الأقل يتظاهرون بذلك"، لاحظتُ على الفور خطأ ذكري لكلمة "بلدان أخرى". ويبدو أنها لم تلاحظ ذلك.
وقالت: "أمي تسخر من هؤلاء الناس، وكذلك يفعل آخرون". لكنك ذكرت دولاً أخرى. لقد كنت في غجادكار مرة واحدة.
"كيف وصلت إلى هناك؟"
أجابت: "أعرف رجلاً ذا نفوذ كبير. إنه ثري جداً، وربما يكون من أغنى الأشخاص في البلاد. يعيش في قصر فخم. وهو مثقف جداً ويتحدث لغات أخرى غير التبتية. رافقته إلى الهند قبل عامين."
"هل ستتزوجينه يا دولما؟"

"لا... والدتي قلقة للغاية بشأن أن ألتقي به قدر الإمكان، لكنها لا تفهم... ناربو قوة روحية عظيمة وأنا أحد تلاميذه."

مشينا لبضع دقائق دون أن نقول شيئاً.

"ناربو يشبهك قليلاً يا شيدي،" تابعت حديثها. "إنه من النوع الذي ينام وحيداً في خيمة في منطقة موبوءة باللصوص. وهو لا يخاف من الحيوانات البرية أيضاً. ألا تتعرض أنت لهجوم من الحيوانات أبداً؟"

أجبتُ: "نادراً. الحيوانات التي تعيش في مرحلة النضج المبكر لطيفة جداً معي. لا أعتقد أن الأسد سيهاجمني، مع أنني لم أقابل واحداً قط. لكنني حظيت بتجارب ممتعة للغاية مع الدببة وبعض الحيوانات البرية الأخرى."

قالت دولما: "سمعت قصة عن دب. سأرويها لكم. ربما تستطيعون أنتم أيضاً أن تخبروني بها."

سألته إن كان مثل هذا الأمر ممكناً. ... رجلٌ كثيراً ما خالف القانون الذي يحظر الصيد، حصل على عصا قتل بيضاء. في منطقة لاسا، وعندما عاد إلى مقاطعته خرج للصيد. كان قد اصطاد عدة دببة، ولكن في أحد الأيام، وبينما كان يتبع أثر حيوان، ظهر دب قوي فجأة خلفه مباشرة...

"أستطيع أن أصدق هذا تماماً"، علقت، "فالدببة ربما تكون أكثر المخلوقات هدوءاً عندما تتحرك، وبالتأكيد يمكنها أن تفاجئ الصياد".

"انتظر لحظة... لقد كان الصياد خائفًا للغاية عندما رأى الدب الكبير خلفه مباشرة لدرجة أنه أسقط بندقيته وحدق في الحيوان برعب، والذي كان بإمكانه سحقه في غضون ثوانٍ قليلة."

سألت: "وماذا حدث؟"

"حسنًا،" قالت دولما، "والآن يأتي الجزء من القصة الذي وجدت صعوبة في تصديقه - نظر الدب إلى المخلوق الهزيل الذي كان يقف مرتجفًا أمامه، وبندقيته ملقاة عند قدميه، و... مشى بعيدًا بهدوء."

قلت: "أستطيع أن أصدق ذلك، فالدببة تمتلك روحاً، وإن كانت لا تتجلى إلا في بعض الأحيان. وبالمناسبة، من السهل تحديد ما إذا كان الصياد في القصة يمتلك روحاً أم لا."

"لو كان للصياد روح، لكان من المستحيل عليه أن يحمل البندقية ليطلق النار على الدب. أما لو كان بلا روح، لكان فعل ذلك على الفور."

"هل توجد حيوانات بلا روح أيضاً؟"

"أجل، الحيوانات التي تنحدر من فرع الحياة السفلي بلا روح."

"أيّها، على سبيل المثال؟"

"هناك الكثير منها. الغربان، والجرذان، والفئران - الحشرات الضارة، على سبيل المثال."

"هل يتصرفون كرجل بلا روح؟"

"نعم."

"هل سكنت هذه الكيانات البشر من قبل؟"

"ربما، منذ آلاف السنين. عندما فقدوا أرواحهم بدأوا بالانحدار."

"إنه لأمر غريب للغاية. عندما زرت الهند سمعت الكثير عن التطور التدريجي - أن الحياة تتجه دائمًا نحو الأعلى، وأن الأرواح الموجودة في المعادن تصبح أرواحًا في النباتات، ثم في الحيوانات، وبعد ذلك في الإنسان، وأن الإنسان يجب أن يصبح ملاكًا في النهاية، وأن كل هذا مجرد مسألة وقت."

قلتُ: "لن يكون للحياة معنى يا دولما إن لم يكن هناك بديل بين النور والظلام. هناك تياران للحياة، أحدهما يصعد والآخر يهبط. ولحظة أن يفقد المرء روحه، ينجرف في التيار الهابط."

"كيف يمكن للمرء أن يفقد روحه؟"

"بإثمها على روحها يا دولما."
"عن طريق حياة حسية؟"
"لا، في معظم الحالات يعتبر ذلك خطيئة ضد الجسد. وقد تعاني بسببه في هذه الحياة أو في تجسد مستقبلي."
"إذن، عن طريق معاملة الآخرين معاملة سيئة؟"
لا، كقاعدة عامة، حتى هذا ليس ذنبًا في حق روحك. ستُعاقب على سوء معاملتك للآخرين في هذه الحياة أو في حياة مستقبلية، على الرغم من القسوة المفرطة تجاه مخلوقات عاجزة، كالفئران.
إن نكران الجميل، أو الميل الفطري للتجسس على الآخرين، يكشف بالفعل عن درجة معينة من انعدام الروح، والتي قد تكون ناجمة عن ذنوب ارتكبت ضد روح المرء في تجسيدات سابقة.
"حسنًا، إذن، ما هي الخطيئة ضد روح المرء؟"
"استخدام الأمور الروحية لأغراض أنانية. إنزال الله إلى الأرض. محاولة وضع المرء نفسه في مستوى الخالق."
كانت دولما مذهولة.
"إذن، كثير منا هنا يرتكبون مثل هذه الذنوب"، هكذا صرخت.¬
"نعم يا دولما، ولكن أيضاً الناس في بلدان أخرى."
"في الهند؟"
"بالتأكيد."
"في التبول/في-با؟" نظرت إليّ بطريقة غريبة للغاية عندما قالت ذلك.
"بالطبع، هناك بعض الناس الذين يرتكبون الخطيئة ضد أرواحهم أيضاً."
"التبول في"لا بد أن تشبه التبت في بعض النواحي"، أضفت بعد فترة.
قالت دولما: "سأخبرك بشيء مثير للاهتمام. أخبرني ناربو، معلمي، أن بي-لين-با ليست دولة واحدة على الإطلاق. إنها دولة مقسمة إلى العديد من المقاطعات الصغيرة التي غالباً ما تتخذ موقفاً ضد بعضها البعض."
"حقًا ؟"
"في بعض النواحي، أنت تشبه ناربو، تشيدي، لكن في نواحٍ أخرى - وخاصة في الأمور الروحية - لا تقول نفس الأشياء بالضبط. أعتقد أنه يرغب بشدة في مقابلتك لمناقشة هذه الأمور."
سألت: "أين هو الآن؟"
"إنه كثير السفر. ربما يكون في المنزل الآن. قبل بضعة أسابيع عاد إلى منزله من لاسا. سيذهب قريباً إلى وادي الغموض."
"وادي الغموض...؟"
"إذا كنت لا تعرف ما هو وادي الغموض، فلا يُسمح لي بإخبارك المزيد عنه. لذا من فضلك لا تذكره بعد الآن"، قالت ذلك بحزم كان مثيرًا للدهشة تقريبًا في فتاة صغيرة كهذه.
لاحظت خيبة أملي، فابتسمت وقالت بلطف: "لكنني سأقدم لك تعريفًا بناربو... لكن أرجوك وعدني بشيء واحد."
"ما هذا ؟"

«عندما تقابل ناربو، لا تخبره أنني ذكرت لك وادي الأسرار. ظننت أنك تعرف كل شيء عنه عندما ذكرتُ هذه الكلمة، لأنك تبدو ملمًا بالأمور الروحية. ... أنا مُلزم بقسمٍ مُغلّظٍ ألا أتحدث عن الوادي ... إذا أراد ناربو أن يُخبرك شيئًا عنه، فليفعل، فهو يحتل مكانةً أعلى بكثير في عالم العلوم الخفية.»

ازدادت دهشتي أكثر فأكثر.

لا وجود للصدفة في هذا العالم. نتعرف على أشخاص بالصدفة، لكن يبدو أن كل شيء في حياتنا يسير وفق آلية معقدة لا ندركها.¬

وصلنا إلى الساحة المركزية للدير حيث سيُقام العرض المسرحي. كان من المقرر أن يستمر العرض لساعات طويلة، وقد حضر الجمهور حاملين كميات كبيرة من الطعام والشراب. استمرينا في الحديث، ومرّ الوقت سريعًا. التبتيون شعبٌ...¬

يأخذون وقتهم. قبل ثلاثة أرباع الساعة من الموعد المحدد للعرض، كانت الساحة والمعارض مكتظة بالناس، على الرغم من أن الحشود ربما كانت أقل قليلاً من اليوم السابق، عندما ظهر السونغمي ليقدم عرضًا لقدرته على الدخول علنًا في اتصال مع آلهته أو شياطينه.

ألقيت نظرة خاطفة على دولما مراراً وتكراراً.

هل من الممكن أن تكون هذه الفتاة الصغيرة صديقة وتلميذة روحية لرجل تبتي ثري وقوي يشغل منصباً بارزاً في البلاد، وكان عضواً في هيئة سرية قوية؟

بالطبع، كان هناك شيءٌ ما في دولما يميزها بشكلٍ كبير عن أي فتاة تبتية أخرى في سنها. نظرتُ إلى فستانها. كان بسيطًا للغاية، ومع ذلك أنيقًا تقريبًا. لم تكن تتباهى بأي زينة، وهو أمرٌ نادرٌ جدًا بين النساء التبتيات. كانت نظيفة، وهي سمةٌ أخرى بارزة في التبت. كانت متعلمة، وتعرف الكثير، ليس فقط عن التبت، بل أيضًا عن الهند.

نظرتُ إليها مرة أخرى بتمعّن، وقارنتها بالحشد المحيط بنا. كان الأمر أشبه بالنظر إلى دوقة استعارت ملابس إحدى خادماتها وتختلط بحشد في منطقة إيست إند.

خفتت أحاديث الناس المرحة. لقد بدأ العرض.

كان من الصعب جدًا عليّ فهم كل ما قاله الممثلون. أولًا، اللغة الكلاسيكية المستخدمة كانت تختلف إلى حد ما عن اللغة التبتية العامية، وكان الاختلاف كبيرًا تقريبًا مثل الاختلاف بين اللغة الإنجليزية الحديثة المستخدمة في¬

المراسلات التجارية واللغة الإنجليزية في طبعة شكسبير. علاوة على ذلك، ارتدى العديد من الممثلين أقنعة، مما زاد من صعوبة الفهم.

من ناحية أخرى، كانت حبكة المسرحية بسيطة للغاية. فالأحداث التي قد تستغرق ثلاث دقائق على المسرح الإنجليزي، امتدت أحيانًا إلى مشاهد دامت أربعين دقيقة! علاوة على ذلك، كان الحوار مدعومًا بإيماءات مبالغ فيها، مما مكّن حتى الجالسين على مسافة بعيدة من توقع الأحداث. مع ذلك، استطعت فهم الكثير.

مجّدت المسرحية الزهد وعدم مقاومة الشر، وأكدت مراراً وتكراراً على إمكانية نيل السعادة كمكافأة على الزهد.

كان بطل المسرحية (أستخدم الكلمة بمعنى تقني، لأنه كان بطلاً مثيراً للشفقة في الواقع) يسعى للتخلي عن شخصيته من أجل الحصول على السعادة.

لماذاهل يسعى الناس إلى مفهوم غير أناني للحياة؟

هل السبب في أننا نشعر بالكثير من الحب والتعاطف مع مشاكل الآخرين هو أننا نبدأ بالشعور بالخجل من أنانيتنا التي تسبب الكثير من المعاناة؟
أم أن ذلك لأننا نريد السعادة مقابل مفهوم غير أناني للحياة؟
في المسرحية التي عُرضت في الدير، كان دافع البطل هو الثاني وليس الأول. لقد أراد السعادة كمكافأة على تخليه عن شخصيته.
بدأت المسرحية بمونولوج طويل للغاية حول شرور الوجود. أقتبس من الذاكرة.
كان السفر متنكراً في التبت أمراً بالغ الصعوبة، ولم يكن ممكناً إلا في مناسبات نادرة.
أسهب بطل المسرحية في الحديث عن شرور الحياة المختلفة، وبدا أنه أغفل الكثير من الأمور التي تجعل الحياة جديرة بالعيش، والتي هي في متناول حتى من لم يحالفهم الحظ، كالحب والصداقة والحماس وجمال الطبيعة، وغيرها.
"الحياة سيئة"، هكذا فكر.
"الحياة ليست سوى معاناة وألم."
"لا شيء حقيقي."
"كل شيء غير واقعي."
"الإبادة هي الهدف."
نظرت إلى دولما الجميلة. نظرت إلى الشمس وهي تملأ بسخاء بضوئها الساطع فناء الدير، وتساءلت عما إذا كان البطل المسكين يدرك التجديف الرهيب الذي كان يتلفظ به.¬
ما كان ينبغي أن يخلقه الخالق هو هذا الكون الرائع - المليء بالمعاناة، صحيح، ولكنه مليء أيضاً بالمتعة، والمعاناة تمنع المتعة من أن تصبح رتيبة - وذلك لكي تدرك مخلوقاته أن الوجود شر وأن هدفهم الأسمى هو الهروب منه!¬
قارنتُ البطل المسكين في المسرحية التبتية بشخصية هاملت المجيدة، الذي يشعر بشدة بمأساة كونه مجرد إنسان لا أكثر. وباعتباره عبقريًا وقادرًا على أشد المشاعر، يعاني هاملت أكثر بكثير من البطل التبتي، ولكنه مع ذلك...
الشجاعة ونبل الشخصية لمواجهة مشاكله ككائن حي دون أي تفكير في الهروب أو "الخلاص".
كان البطل متزوجاً ولديه أطفال. وكان يعمل لإطعام أسرته.
تعرض لهجوم من سرب من البعوض.
كان لدى اللامات خدعة مسرحية غريبة لتمثيل سرب هائل من البعوض. تساءلت كيف تم ذلك، لكنها بدت حقيقية للغاية.
قدّم البطل دمه للبعوض قائلاً: "أيها الصغار الأعزاء، دعهم يتناولون وجبة دسمة. عليّ إطعام عائلتي، لكن العائلة والبعوض شيء واحد."
بعد أن أطعم البطل الكثير من البعوض، مرض واستمرت المسرحية، واصفة معاناته ومعاناة عائلته الناجمة عن عدم قدرته على العمل.
في الوقت الذي أوشك فيه مخزونهم من الطعام على النفاد، ظهرت الفئران في منزلهم. وقد قام أطفال تبتيون بدور الفئران، مرتدين أقنعة وحاملين ذيولها الطويلة بعناية تحت أذرعهم. قال البطل:
"كُلوا أيها الجرذان الصغيرة، كُلوا، كُلوا، كُلوا."
"أطعموا أجسادكم الصغيرة أيها الإخوة الرماديون."
"كلوا يا إخوتي الرماديين، كلوا، كلوا، كلوا."

"طعامنا لكم أيها الإخوة الرماديون."
"كلوا أيها الجرذان الصغيرة، كلوا، كلوا، كلوا."
أقتبس هذه المقاطع من الذاكرة، ولكن أود أن أضيف أن نص الحوارات والمونولوجات كان أطول بكثير وأكثر تفصيلاً.¬
أكلت الفئران طعام العائلة شبه الجائعة وأصبحت أعدادها تتزايد باستمرار.
ثم ظهر مشهدٌ يُشيد فيه البطل بسعادة العطاء. صرخ قائلاً: "إذا أكلت الفئران النصف الأول من طعامي، فسأعطيها النصف الثاني"، في مشهدٍ قد يصفه مُشاهدٌ مُنحرفٌ بنوبةٍ من الهستيريا الدينية.
لم يبدُ أنه يكترث برأي أطفاله في الأمر، لكن يبدو أن هذا الأمر كان أقل أهمية بالنسبة له من رفاهية الفئران.¬
استمر كل ما سبق لأكثر من ساعتين، لكن المسرحية استمرت دون انقطاع، والجماهير التبتية تتابعها بترقب شديد. فُتحت أفواه البعض دهشةً، بينما ذرف آخرون الدموع، ولم يُسمع همسٌ واحد.
في المشهد التالي، تضاعف عدد الفئران أربع مرات. وقد أُكل كل الطعام. كان البطل وأطفاله يجلسون في المنتصف، بينما كانت بضع عشرات من الفئران تدور حولهم في دوائر تصغر تدريجياً.¬
"tyir, kyir*"نحن جائعون. ندور، ندور، ندور. لا يوجد شيء نأكله، كير، كير، كير" هكذا رددت جوقة الفئران.
بدأ البطل مونولوجاً طويلاً مليئاً بالشفقة على الفئران. بدا أن الرجل المتدين قد نسي تماماً جوع أطفاله.
فجأةً، انقضّت الفئران على أحد الأطفال وحملته إلى الخارج لتلتهمه. لم يكترث البطل، بل بدأ يُلقي مونولوجًا بليغًا عن لذة التضحية بالأبناء وعن عظمة اتحاد جميع المخلوقات.
في تلك اللحظة، كتم شاب تبتي ضحكته. أصيب الحضور بالذهول وارتفعت أصوات الاحتجاج. وتم اقتياد المذنب على الفور.
أُخرج من الملعب بواسطة عدد قليل من اللامات، واستمرت المسرحية. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تهدأ غضب بعض السيدات المسنات.
أخبرتني دولما همساً أنها لا تتذكر أنها شاهدت مسرحية كان فيها التوجه "الديني" واضحاً كما هو الحال في هذه المسرحية.
أثار تسلية الشاب التبتي استياءً بالغاً لدى اللامات. وقالت دولما إنه من المحتمل أن يلغوا سريعاً بعض المشاهد المتبقية ذات الطابع الديني، إذ بدت المسرحية قوية جداً على الجيل الشاب.
سألت بصوت منخفض: "هل سبق لك أن رأيت مسرحية دينية بهذا القدر؟"
قلتُ: "لا". أنا متأكد من أنني قلت الحقيقة عندما قلت ذلك.
استمر مونولوج البطل، الذي قاطعه نوبة غضب الصغير، بلا نهاية. وأعلن أنه يحسد طفله لأنه تمكن، ولو لفترة وجيزة، من الفرار من عالم المعاناة هذا.
بدا وكأنه يلمح إلى أن الموت عملية مبهجة للغاية ومثيرة للحسد.
بعد أن أنهى البطل مونولوجه، بدا عليه السرور جلياً. وكذلك الفئران. واستمرت المسرحية الدينية. وكما علمت لاحقاً، كان الأمر أشبه بتجربة، وقد اجتمع اللامات بالفعل لإلغاء بعض المشاهد لمنع تكرار الحادثة غير اللائقة والكارثة المروعة المتمثلة في كبت الضحكة مرة أخرى.
كنت أعلم أن اللامات نادراً ما يفشلون في تقديم أنفسهم وعدد معين من الشياطين في
المسرحيات الدينية التي تُعرض في الأديرة التبتية. كنت أنتظر ظهورها بفارغ الصبر، فقد أصبحت المونولوجات والحوارات التي لا تنتهي مملة للغاية.

وأخيرًا، ظهر لاما في العرض. من الواضح أنه تم اختياره وارتداؤه بطريقة مُصممة لإظهار الكهنوت التبتي بأفضل صورة ممكنة. علاوة على ذلك، بدا أن كل ما قاله اللاما في المسرحية يهدف إلى تعزيز سلطة الكهنة. لم يُقدم اللاما الكثير من التفسيرات للبطل المتدين والمُحترم، بل أصرّ على الإيمان الأعمى. وقد كرّر الأخير ذلك في عدة مناسبات.¬

"أنا أصدقك يا لاما."

"نعم، أنا أصدقك."

"نعم، نعم، نعم، أنا أصدقك."

"أنا لا أشكك فيك يا لاما."

"لا، أنا لا أشكك فيك."

"لا، لا، لا، أنا لا أشكك فيك."

شرح البطل للاما أنه ضحى بكل شيء لينال نعيم النيرفانا. وعدد فضائله بأسلوبٍ لا يخلو من التواضع. حتى أنه ضحى بأبنائه لإطعام تلك الفئران المسكينة. لكنه كان قلقًا بشأن الذنوب التي ارتكبها قبل أن يبدأ حياته الفاضلة. ولذلك طلب العون الروحي والنصيحة من اللاما المقدس، الذي تفضل بلقائه بروح سامية من التضحية والشفقة على هذا العالم الخاطئ الذي هو في أمس الحاجة إلى اللامات لمحاربة الشر والدفاع عن الحق.

"التشجيع على أن تكون جيداً."

"تحذير من الشر".

"نصيحة لتنظيف القلب".

"مثل قانون البوذية."

إذا لم تخني ذاكرتي، فإن البيتين الأخيرين تم اقتباسهما نصياً من اللغة السنسكريتية ونطقهما الممثل بتلك اللغة بلكنة تبتية قوية:

"Sa chittaparyo dapanam,

Etam Buddhana sasanam."

فيما يلي ملخص للمحادثة اللاحقة بين الخاطئ واللاما، مترجمة ترجمة حرة من اللغة الإنجليزية البسيطة والمفهومة التي استخدمها الممثلون التبتيون، والتي كانت لغة راقية ومعقدة:¬

الخاطئ:"أنا سعيد بوجودك هنا لتقديم النصيحة لي."

لاما:"ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك ؟"

الخاطئ:"لقد ارتكبت ذنوباً عظيمة في حياتي السابقة."

لاما:"لا يهم. أنا سعيد لأنك أخطأت حينها."

الخاطئ:"ماذا أنا يا رجل الدين، سعيد لأنني أخطأت؟"

لاما:"نعم، أنا سعيد لأنكم أخطأتم، لأن هناك فرحة أكبر لثلاثة خطاة يتوبون من ثلاثمائة شخص لا يحتاجون إلى التوبة لأنهم لم يخطئوا قط."

لم يسعني إلا أن أفكر أنه في ظل هذه الظروف، يُعدّ ارتكاب الخطيئة أمرًا جيدًا حقًا، لأن هناك فرحًا أكبر بالخطاة التائبين منه بالصالحين الدائمين.¬

وأخيرًا، بدأت الشياطين بالظهور في العرض. بدا الأمر وكأنه لا ينتهي. كنا قد جلسنا لمدة أربع ساعات على الأقل، وما زال العرض مستمرًا.

"يا لاما، أعطني الدين."

"أعطني الدين يا لاما"، هكذا صرخ الخاطئ مراراً وتكراراً بحزن.
في المشهد التالي، ظهرت بعض الشياطين في الخلفية. لم يُسهم هذا في تسريع الأحداث بأي شكل من الأشكال. بدت حبكة المسرحية ضعيفة للغاية.
نظرتُ إلى دولما. بدت عليها علامات الملل ولم تحاول إخفاء ذلك. همستُ: "هل نذهب؟"
أجابت: "إنه أمرٌ صعبٌ بعض الشيء أن أتجنب لفت الانتباه. ثم إن والدتي وبقية أعضاء حزبي يتفرقون في أرجاء القاعة."
اقترحتُ: "لسنا مضطرين للخروجِ معاً".
قالت الفتاة: "حسنًا، سأخرج أولًا وأنتظركِ خلف البوابة الغربية للدير. سأذهب فورًا... إذًا، عند البوابة الغربية للدير." كررت ذلك بحرص شديد وغادرت على الفور، وانحنت قليلًا وسلكت مسارًا متعرجًا عبر الحشد.
وبعد بضع دقائق تبعتها.
لا يوجد بلد في العالم يهتم فيه الناس بالشؤون الدينية أكثر من اهتمامهم في التبت. يلعب الدين دورًا بالغ الأهمية في المحادثات اليومية، مع أن قلة من الناس مهتمون بالمشاكل الدينية العميقة، إذ تطغى أحاديث السحر والتنجيم والمعجزات المزعومة.
أكثر تكرارًا من المناقشات اللاهوتية. ومع ذلك، يبدو أن دولما كانت تميل إلى الأخيرة.¬
سألتني عما إذا كنت أعتبر موقف البطل في المسرحية موقفاً مناسباً لشخص متدين حقاً.
أجبتُ: "لا".
سألت: "هل ينبغي للإنسان أن يكون أنانياً إذن؟ هل من الخطأ محاولة أن يكون صالحاً؟"
"لا، ولكن من الخطأ محاولة أن تكون مثل الله."
"لكن الله خير. ومحاولة التشبه بالله تؤدي إلى الخير."
قلتُ: "لا يجوز للمخلوق أن يتجاوز حدوده بمحاولة أن يكون مثل الله. فإذا فعل ذلك، فإنه يتصرف كالملائكة الذين تمردوا على الخالق. هناك نوعان مختلفان من انعدام الشخصية، وهما: الوجود والوجودية."¬ الأول صفة من صفات المخلوق، والثاني صفة من صفات الخالق.
الوجود هو انعدام الشخصية المطلق حيث يزول كل فصل بين "الأنا" و"اللاأنا". إنه خارج عن متناول المخلوق.
سألت دولما: "ماذا يحدث للرجل الذي يريد أن يصل إلى هذه الحالة؟"
"إنه يرتكب أعظم وأخطر خطيئة ضد الخالق."
بدت منزعجة للغاية وغيرت الموضوع.
سألته: "هل ستغادر اليوم يا شيدي؟"
أجبتُ: "نعم يا دولما، هل أنتِ كذلك؟"
"سنعود على ظهور الخيل باتجاه تاراتشان."
... يا للأسف أنك لا تستطيع المجيء معنا.
"لكن تاراتشان هي تقريباً نفس الاتجاه الذي كنت أنوي أن أسلكه يا دولما."
لم تحاول إخفاء فرحتها.
"رائع!" هتفت. "يمكنك أن تتبعنا على ظهور الخيل، ويمكننا أن نلتقي كل يوم في المساء عندما يخلد أعضاء مجموعتي إلى النوم. لكن لدينا خيول جيدة ونقطع حوالي ثلاثين ميلاً في اليوم."
قلت: "هذه خطة جيدة جداً. كيف يبدو حصانك؟"

قدمت وصفاً دقيقاً له. ثم سألت: "وماذا عنك؟ لم تذكره أبداً."
قلت: "لست بحاجة إلى حصان يا دولما".
ظنت أنني كنت أمزح.
"أنا جاد تماماً"، أضفت. "بإمكاني المشي لمسافة لا تقل عن ثلاثين ميلاً في اليوم".
"وأنا أيضاً أستطيع،" قالت، "ولكن ليوم أو يومين فقط. لا يمكنكِ المشي 120 ميلاً في أربعة أيام."
قلتُ: "أستطيع"، فصدقتني. ثم شرحتُ لها بإيجاز أنني أستغني عن الحصان لأحافظ على لياقتي البدنية حتى أتمكن من اجتياز المناطق التي لا يُسمح فيها باستخدام الخيول.
تم الاتفاق على أن أغادر المنطقة قبل دولما. ستغادر هي ومجموعتها بعد ساعتين، ويلحقون بي ظهر اليوم التالي. ذكرتُ سابقًا في الكتاب أن الرؤية ممتازة في معظم أنحاء التبت. كما ابتكرنا طريقة بسيطة وفعّالة لتحديد الأماكن التي نمر بها.¬
لم يجدوا صعوبة في إيجاد المكان الذي سينصبون فيه خيامهم. بعد ساعة أو ساعتين من حلول الظلام، كان عليّ أن أعوي مرتين كذئب. ثم تغادر دولما خيمتها وتنضم إليّ لبعض الوقت.
سألتهم: "هل أنت متأكد من أنهم سيسمحون لك بالخروج بمفردك في هذا الوقت المتأخر؟"
أجابت: "نعم، أنا بارعة في التدبير. بالمناسبة، أسكن نصف خيمة أمي، يفصلني عنها حاجز. لا يُسمح لأحد بدخول "غرفتي" تحت أي ظرف من الظروف إلا إذا ناديت. حتى أمي لا تفعل ذلك. لذا سأزحف للخارج وأحاول التسلل من أمام الرجل الذي يحرسني. إذا رآني، سأعطيه رشوة لكي يصمت."
كما وعدت بكتابة رسالة تعريف موجهة إلى ناربو وتسليمها لي في المساء مع وصف دقيق للمكان الذي توجد فيه أغنيته.¬
"والآن يجب أن ألتقي بمجموعتي مرة أخرى"، قالت عندما عدنا إلى بوابة الدير. "العرض على وشك الانتهاء".
تجولتُ وحيدًا لأفكر. يا له من ازدحامٍ شهده هذان اليومان! الشياطين التي استولت على جسد الراهب؛ لقائي بفتاة تبتية جميلة وذكية كانت على وشك أن تُعرّفني على رجل نافذ ينتمي إلى جمعية سرية مؤثرة؛ عرض مسرحي حقيقي في دير تبتي، من المرجح أنه لم يزره أي شخص أبيض من قبل - كل هذا شاهدته وعشته في أقل من يومين.
ثم جمعت مؤونتي الغذائية وانطلقت في الاتجاه الذي أشارت إليه دولما الصغيرة الجميلة.
ولحقت بي مجموعتها على ظهور الخيل في وقت مبكر من بعد الظهر. وبفضل اللافتات الصغيرة التي كانت دولما تضعها بشكل غير ملحوظ كل بضع مئات من الأمتار على فترات منتظمة، تمكنت بسهولة من العثور على المكان الذي نصبت فيه المجموعة خيامها.¬
انتظرتُ حتى بعد حلول الظلام بساعتين تقريبًا، ثم عويتُ مرتين كذئب. سمعت دولما الإشارة، وبعد ربع ساعة انضمت إليّ في الظلام.
سألت: "هل رآك أحد وأنت تغادر؟"
أجابت: "نعم، لم أستطع الهرب دون أن يلاحظني حارس الليل الذي يجب أن يكون متيقظاً للقطاع. لكنني وعدته بكيس من دقيق الشعير إذا التزم الصمت."
وأضافت: "بمجرد أن فعلت ذلك، هربت بأسرع ما يمكن أن يصل بال دورجي إلى هنا".
سألت: "من هو بال دورجي؟"
"ماذا؟" صاحت، "ألا تعرف من هو بال دورجي؟"
قلت: "لا".

نظرت إليّ دولما نظرة غريبة. وكما علمت لاحقًا، يكاد لا يوجد تبتي - بمن فيهم الأقل تعليمًا - لم يسمع بقصة بال دورجي، وهو تبتي ارتكب جريمة تقوى.
أخوية سرية 73جريمة قتل في الحقبة التي تتوافق مع العصور الوسطى لدينا.
كان بال دورجي رجلاً ذكياً وبارعاً. عندما أصبح مطلوباً للعدالة، وطارده مطاردوه إلى قرية تبتية، سرق حصاناً بسرعة، وسوّده بالسخام، وانطلق هارباً، بينما كان مطاردوه يتبعونه على خيول أخرى. عندما وصل إلى نهر، سبح بال دورجي عبره، ولكن بينما كان حصانه يعبر النهر، جرف السخام، وتحول لون الحصان إلى الأبيض بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى الضفة المقابلة. عندما وصل المطاردون إلى النهر، رأوا رجلاً يركض هارباً على الجانب الآخر على حصان أبيض. لذلك ظن هؤلاء "الشرطة" في العصور الوسطى أن بال دورجي قد اختفى، وعادوا إلى ديارهم!
أحضرت دولما الكثير من الطعام من خيمتها. لا شك أن النساء متشابهات في كل مكان، فهنّ لا يغفلن أبدًا عن سلامة من يهتممن لأمرهنّ.
فتحت طرد الطعام الخاص بها، وعندما رفضت تناول اللحوم، تحول حديثنا على الفور إلى موضوع النباتية.
سألت: "لماذا تكرهين شا؟"
أجبت: "لا أكره ذلك".
"إذن لماذا لا تأكله؟"
"لأنني أجد أكل اللحم أمراً قاسياً. إذا أكلت قطعة لحم أشعر وكأنني شخص يعض ذراعه اليسرى ليأكلها."
قالت دولما: "هناك بعض الناس الذين لا يأكلون اللحوم أبداً، لكني لا أحبهم. يبدو أنهم يخافون من تناول اللحوم".
"وهنا مرة أخرى، كما ترين يا دولما، إنها حقًا الأهم هو لماذا نفعل الأشياء وليس ما نفعله.
تحدثنا لمدة نصف ساعة ثم عادت دولما إلى منزلها.
قضيتُ الليلة في خيمتي وانطلقتُ قبل شروق الشمس بنصف ساعة. لحقت بي المجموعة لاحقًا خلال النهار على بُعد حوالي نصف ميل. عدّلتُ مساري قليلًا واتبعتُ الإشارات الصغيرة التي كانت تضعها الفتاة التبتية بانتظام.
التقينا مرة أخرى بعد غروب الشمس بوقت طويل بنفس الطريقة التي التقينا بها في اليوم السابق.
أخبرتني دولما أن "الحارس" جاء ليأخذ إكراميته صباحًا، وبعد أن حصل عليها ذهب إلى والدتها وأخبرها بكل ما يعرفه عن غيابها الليلة الماضية، ليضمن بذلك إكرامية ثانية. غضبت والدتها، فكذبت دولما بشأن نزهة منفردة قامت بها ليلًا. لكنها في هذا المساء هربت دون أن يلاحظها أحد من التبتيين الذين كانوا يراقبون المكان طوال الليل.
قالت: "لطالما أخبرني ناربو، معلمي، أن الشخص الروحاني لا ينبغي له أن يكذب أبدًا. أشعر بالذنب، لكنني لا أفهم كيف يمكن للمجتمع البشري أن يستمر دون أكاذيب."
«هناك أناس يقولون أشياء غير صحيحة»، لاحظتُ، «لكن الأمر أسوأ بكثير إذا قام شخص ما بتحريف الحقائق وخلق انطباع خاطئ دون أن يكذب كذبة صريحة وواضحة. إن مثل هذا الأمر شيطاني ويغضب الخالق بشدة، بل أكثر من الكذب الصريح».
"أعتقد أنكِ محقة"، قالت دولما. "أنا
75أعرف قصة عن حادثة وقعت في دير تُظهر كيف يمكن للرجل أن يكذب ضد الروح دون أن يكذب كذبة حقيقية ورسمية.

ذهب رجل تبتي إلى لاما يعرفه جيدًا ليعترف بذنوبه. وقبل دخوله الدير، وجد شيئًا ثمينًا كان يعلم أنه ملك خاص للاما الذي كان سيعترف له. فأراه للكاهن، لكن الكاهن كان شارد الذهن، وقال دون أن ينظر إليه: "لا أريده". ثم بدأ الاعتراف. فسأل التبتي عما يجب عليه فعله إذا وجد شيئًا ثمينًا ملقى على الأرض. فقال اللاما: "يجب أن تسلمه إلى صاحبه، وإذا لم يُعثر عليه فورًا، فسلمه إلى الدير". فسأل التبتي: "وإذا لم يرغب صاحبه به؟". فقال اللاما: "حينئذٍ يمكنك الاحتفاظ به". فغادر التبتي الدير واحتفظ بالشيء الثمين. كان يعلم أنه لم يرتكب ذنبًا ولم يكذب كذبة واحدة.¬

ضحكنا من أعماق قلوبنا.

"مع أن هذه الكذبة لم تكن كذبة رسمية على الإطلاق، إلا أنني أفضل كذبك البريء يا دولما"، هكذا علقت.

أليس من الحقائق أنه كلما توغل الإنسان في عالم الروحانية، كلما ازداد احتمال أن يضيع نفسه في متاهة من الأشياء حيث تتوقف الكلمات والمعايير الرسمية للقيمة عن كونها أساسًا موثوقًا به، وحيث يمكن استخدام كل شيء بسهولة كذريعة؟

في مساء اليوم التالي، التقيت أنا ودولما للمرة الأخيرة. وفي اليوم التالي، وصل موكبها إلى قريتهم.

لم أدرك ذلك تماماً إلا في ساعة الفراق

أدركتُ مدى إخلاص هذه الفتاة التبتية الجميلة لي. ربما ظنت هي نفسها أنه نوع من "حب الروح"، لكن ربما كانت تخدع نفسها. لا شك أنه كان حب روح، لكنه حب روح ذو لمسة إنسانية واضحة. مهما بلغت العلاقات الإنسانية من سمو، يبقى فيها دائمًا لمسة شخصية. قد تكون كامنة، لكنها مع ذلك حقيقية جدًا.

لا شك أن بين قرائي أشخاصًا متدينين يختلفون معي اختلافًا جذريًا في هذا الشأن، ويتمسكون برأي مفاده أن التواصل "الروحي" يجب أن يخلو من أي عنصر بشري "دنيئ". أنصح هؤلاء القراء أن يتساءلوا عما إذا كان الأمر سيختلف تمامًا لو كانت دولما امرأة في السبعين من عمرها (فهناك نساء في هذا العمر ما زلن يتمتعن بروحانية عالية وحيوية)، أو لو أن دولما، الفتاة الشابة الجميلة، قابلتني في هيئة رجل مسن متدين وحيوي، يبدو في الثمانين من عمره.¬

كانت الأيام القليلة التالية هادئة إلى حد ما حتى وصلت إلى منزل التبت حيث كان يعيش ناربو، المعلم الروحي لدولما. كنت أتطلع إلى مقابلتي معه. فبعد كل ما أخبرتني به دولما عنه، بدا لي ليس فقط شخصًا متدينًا للغاية، بل أيضًا شخصًا أوكلت إليه مهمة سياسية هامة من قبل جماعة الإخوان الباطنية التي ينتمي إليها.

خلال الأيام القليلة التالية، عانيت كثيراً من نقص المياه للشرب والاستحمام. لم تهطل الأمطار لعدة أيام، وكان كل شيء...

*** منزل كبير بُني لأشخاص ذوي نفوذ.**

جفّت المياه في المنطقة بسرعة. مع ذلك، فإنّ الشخص المعتاد على السفر وحيدًا في صحاري العالم المختلفة يتأقلم بسهولة مع الظروف الصعبة. حتى نصف لتر من الماء يكفي لمسافات طويلة إذا استخدمته لترطيب شفتيك الجافتين، ثمّ وضعت حوالي بوصة مكعبة منه في فمك، وابتلعته ببطء شديد، قطرة قطرة. بهذه الطريقة، قد يكفي نصف لتر من الماء ليومين.

في آخر عصر قبل وصولي إلى ناربو دسونغ، هبت عاصفة رعدية عنيفة. هطل ما يقارب بوصتين من المطر في نصف ساعة. وقبل بدء العاصفة مباشرة، بدت السماء مهيبة بشكل لا يوصف. كان مشهدًا

نادرًا لا يُرى إلا مرة كل سنوات في الدول الغربية. كانت الغيوم سوداء كالحبر تقريبًا، وكأنها شياطين عملاقة تُحضّر شيئًا ما في مرجل. بعض الغيوم تُشبه وحوشًا ضخمة، وعندما بدأ المطر الغزير، توالت ومضات البرق بمعدل ثلاث ومضات في الثانية تقريبًا.
أغنية ناربو كانت تقع في منطقة مكتظة بالسكان نسبيًا. كنت أتجنب عادةً طرق التجارة أثناء سفري متنكرًا في التبت، وأبتعد بشكل خاص عن الأماكن التي كان لديّ سبب للاعتقاد بوجود أناس بيض فيها.
إذا كانت معلوماتي صحيحة، فإن حكام المقاطعات المختلفة في التبت كانوا آنذاك متصلين في الغالب بخطوط الهاتف.
وهذا، بالمناسبة، يبدو أنه يشير إلى أن التبتيين يعلقون ثقة أكبر قليلاً على تلك الأشياء الحديثة المستوردة للاتصالات بعيدة المدى من الغرب مقارنة بسحرتهم، الذين من المفترض أن يكونوا قادرين على إرسال الرسائل "عن طريق الرياح" - كما يقول التبتيون - أي عن طريق التخاطر.¬¬
أن يتم العثور عليه في مكان يُستخدم كمقر إقامة لـ dsongpon كانت ستكون تجربة رائعة في البلد المحرم، وكان من المحتمل جداً أن يكون المكان الذي أقام فيه ناربو قد تم اختياره كمكان إقامة من قبل مثل هذا الشخص.
لتقليل خطر اكتشاف أمري، قضيت الليلة الماضية على مسافة بعيدة من المكان، ثم مشيت عشرة أميال دون توقف في الصباح الباكر، بنية الوصول إلى منزل ناربو بعد حوالي ساعة ونصف من شروق الشمس.
وحتى في ذلك الحين، نجوت بأعجوبة من المتاعب.
عندما بدأت البيوت الأولى بالظهور، جلستُ قليلاً لأستريح قبل الاقتراب من المسكن. وبينما كنتُ جالساً، خرج رجلٌ تبتي من أحد البيوت وصعد إلى المكان الذي كنتُ أجلس فيه على الأرض.
نظر إليّ بريبة كما لو كان رجلاً يرتدي ملابس مدنية، ثم سألني بطريقة غير ودية على الإطلاق:
"تشي لا إيرو داغ""وأجبت بطريقة طبيعية قدر الإمكان، مع لمسة خفيفة في صوتي تدل على درجة طفيفة من الانزعاج من الإزعاج.
لم يكن هناك ما يستدعي المراقبة. نظر إليّ الرجل مرة أخرى بشك ثم انصرف، ولكن عندما وصلت إلى منزل ناربو بعد دقائق قليلة، لاحظت أنه كان يراقبني. أساليب الشرطة في التبت بدائية للغاية.
عندما رأى أنني سلمت رسالة إلى خادم رجل محترم وذو نفوذ، بدا عليه الاطمئنان وانصرف. نظر إلى قميصي الرخيص بنظرةٍ غير لائقة. كلما كان وضع الرجل متواضعًا، زاد ميله إلى تقييمه بناءً على أمورٍ تافهة كالملابس وما شابهها، ويبدو أن التبت لا تختلف عن الغرب في هذا الشأن. أخبرني أنه سيسلم الرسالة إلى "صاحب السعادة"، ولكن عندما قلتُ إنني أنتظر الرد، تجاهل طلبي وانصرف.
انتظرت بصبر لمدة نصف ساعة، وهو انتظار لم يكن ممتعاً للغاية، حيث بدا أن بعض المارة يحدقون بي بفضول بينما كنت أقف هناك بملابسي الرثة أمام المدخل الرئيسي لمتجر الأغنياء.
فجأةً، خرج من المنزل رجلٌ في الخمسين من عمره تقريبًا، يرتدي ثوبًا من الحرير الخالص. اعتذر على الفور بأسلوبٍ مهذبٍ للغاية وصادقٍ على ما يبدو، لتأخيره لي. أوضح أن رسالة دولما لم تُسلّم إليه إلا قبل دقائق معدودة، وأنه وبّخ الخادم بشدة لتأخره في الرد. ثم اصطحبني "صاحب السعادة" التبتي، الذي بدا مثالًا للرجل النبيل، إلى الطابق العلوي.¬
مما أثار دهشة الخادم الذي أخذ رسالتي.
كانت الأرضيات مغطاة بسجاد فاخر باهظ الثمن وبدا كل شيء في المنزل مجهزاً بشكل جيد ونظيفاً للغاية.

قال ناربو بينما كنا نسير معًا إلى الغرفة حيث يُقدّم الفطور: "لقد كتبت دولما رسالة طويلة جدًا. إنها فتاة ذكية ونادرًا ما تُخطئ في الحكم على الناس. كتبت أنك تبدو رجلاً ذا نظرة مستقلة جدًا في الأمور الروحية، وباحثًا عن الحقيقة بعزيمة. لطالما أحببتُ أمثال هؤلاء الناس. كتبت دولما أيضًا أنك سافرت كثيرًا، وأنها تجد صعوبة في تصديق أنك تبتي أو لاداخي على الإطلاق. ألا تُفصح عن الحقيقة؟ لا أنا ولا دولما نُفشي سرًا لأحد. أُقسم لك أن كل ما تُؤتمنني عليه لن يُفشى أبدًا."
نظرت إليه، وأعجبت أكثر فأكثر بموقفه المتواضع وأسلوبه الصادق.
دخل خادم الغرفة حاملاً أنواعاً مختلفة من الطعام. كانت تلك المرة الأولى خلال رحلتي في التبت التي أتناول فيها ما يُمكن وصفه بفطور فاخر. حتى أنني حصلت على "سبوغري" من الهند، وأشياء أخرى تُعتبر من أشهى المأكولات لدى التبتيين.¬
غادر الخادم الغرفة، وأخبرني ناربو مرة أخرى أنه سيكون من الأفضل للجميع ألا أخفي عنه أي شيء.
قلت: "سأقول لك الحقيقة، لكن..."
سيتفاجأ معالي الوزير كثيراً، وربما بشكل غير سار.
قال مبتسماً: "لا داعي لكلمة 'صاحبة السعادة'. أصدقاء دولما هم أصدقائي، والروابط الروحية تُزيل كل اعتبارات الرتبة. فلنكن أصدقاء."
عاد الخادم ومعه المزيد من الطعام. وما إن فتح الباب حتى بدأنا نتحدث عن أمور تافهة، وسألني ناربو إن كنت قد سمعت أي شيء مثير للاهتمام خلال رحلاتي.
أجبت بأنني رأيت وسمعت الكثير خلال الأسابيع القليلة الماضية.
فجأةً، كاد الخادم يفتح فمه من الدهشة. ما الأمر؟ أدركتُ أنني ارتكبتُ جريمةً شنيعةً باستخدام كلمتي "mthon" و"thos" في الرد على صاحب السعادة، بدلاً من استخدام الكلمتين الأكثر تهذيباً ورسميةً "gx/gs" و"gsan"، واللتان تعنيان الشيء نفسه تماماً.
بدا الخادم في حيرة شديدة. سأله ناربو عما إذا كان لديه شيء آخر يفعله في الغرفة، وعندما أجاب الخادم بالنفي، أمره ناربو بوضع الشاي وأكواب الشاي في غرفة الدراسة ثم الانضمام إلى الكاهن وعدم العودة قبل حلول موعد الوجبة التالية.
ذهبنا إلى مكتب ناربو، وعندما جلسنا أخبرته أنني غربي أسافر متنكراً.
أجاب مبتسماً: "كانت لديّ شكوك منذ اللحظة التي رأيتك فيها، لكنك أديت دورك."

*** "مرئي" و "مسموع". خادم، كبير طهاة منزله.**
بشكل جيد للغاية. ما لم يتم لفت انتباه الناس إليك بشكل خاص، أشك في أن حتى التبتيين المتعلمين سيكتشفون أمرك.
قلت له: "لقد قررت أن أصم وأبكم في كل مرة أقابل فيها اللامات أو الأشخاص المتعلمين".
"هذا تصرف حكيم للغاية"، قال. "لا تشعري بالانزعاج لمجرد أنني أخبرتكِ أنني شعرتُ بجوٍّ غير مألوفٍ من حولكِ. لقد سافرتُ كثيرًا، سواءً لأغراضٍ شخصيةٍ أو نيابةً عن أصدقائي في الوادي. زرتُ الهند والصين واليابان وبيلينبا. يُمكننا التحدث بالإنجليزية إن رغبتِ."
استمرت المحادثات المطولة التي تلت ذلك باللغة الإنجليزية حتى تناولنا وجبتنا التالية، والتي خدمنا خلالها خادمان. كان لدى ناربو معرفة جيدة باللغة الإنجليزية.

انحرف حديثنا إلى موضوع السياسة والقوى العظمى المختلفة. بدا أن ناربو يمتلك معلومات ممتازة - وإن كانت قديمة بعض الشيء في بعض الجوانب - حول التيارات الكامنة وراء مختلف التوجهات السياسية الظاهرة في عصرنا. وسرعان ما شعرنا أن حديثنا كان ذا فائدة متبادلة كبيرة.
أكد لي مجدداً أنه لا هو ولا دولما سيخونانني أبداً، وأنه يجب عليّ الاتصال به فوراً في حال تعرضت لأي مشكلة. وأضاف مبتسماً: "أنا مرتاح جداً في هذا البلد".
ثم ذكر "الوادي" عرضًا مرة أخرى. وبينما كنا نتحدث عن أمور أخرى، ظل يذكر مرارًا وتكرارًا واديًا في التبت حيث يعيش العديد من الأشخاص الروحانيين ذوي التطور الروحي العالي.
كان على اتصال وثيق. عندما ذكر الأمر للمرة الرابعة، اعتبرت ذلك دعوة لسؤاله عن شيء ما.
ثم علمتُ أن وادي الغموض كان مقرًا لجماعة سرية قوية كان ناربو عضوًا فيها. لم تزره دولما قط.
"هل أنت مهتم بمثل هذه الأمور؟" سألني بصراحة، لأنني كنت أحافظ على قدر من التحفظ في كل مرة يبدأ فيها بالخوض في الموضوع بشكل كامل.
أجبت قائلاً: "نعم، أنا مهتم بجميع الأمور الروحية، لكنني لا أنضم أبداً إلى أي طائفة أو جمعية على الإطلاق".
سأل: "لماذا؟"
أجبت: "لأنني أرغب في الحفاظ على استقلالي التام".¬
وأضاف قائلاً: "في أخويتنا، تُحترم حرية الأعضاء دائماً. الحرية الروحية هي مبدأنا التوجيهي".
سألت: "هل لديكم رئيس؟"
"نعم. إنه عظيم جداً، وربما يكون صاحب أعظم قوة على وجه الأرض. لكن أعضاءنا يطيعونه طواعية."
سألت: "لماذا يُطلق عليه اسم "وادي الغموض"؟"
أجاب: "هذا هو الاسم الذي أطلقه عليه العامة. لا يُسمح لأحد بدخول الوادي إلا لأعضائنا وضيوفنا العابرين، ولا يعرف السكان الكثير عنه، بل إن سكان المنطقة نفسها يمتنعون عن الحديث عنه. ولهذا السبب يُطلق عليه عادةً اسم "وادي الغموض".
سألت: "ماذا عن الضيوف الذين يزورون الوادي من حين لآخر؟ من الذي يدعوهم؟"
"قد يدعو الأعضاء الذين يشغلون منصباً أعلى نوعاً ما في التسلسل الهرمي للسحر ضيوفاً، لكنهم يتحملون المسؤولية الكاملة والشخصية عنهم. وأنا شخصياً أحد هؤلاء الأعضاء"، صرح ناربو.
سألته: "ما هي الالتزامات التي يجب على الضيف الالتزام بها قبل السماح له بزيارة الوادي؟"
"لا شيء على الإطلاق. إلى أن ينضم إلى الأخوية، فهو غير ملزم بأي شيء على الإطلاق."
"لكن ما الذي يؤهل رجلاً ليتم اختياره كضيف من هذا القبيل؟"
قال ناربو: "رغبة صادقة ونابعة من القلب في الخلاص".¬
"هل تعتقد أنني رجلٌ كهذا؟"
"أعتقد أنك كذلك. إذا كنت ترغب في الحضور، فسأدعوك على مسؤوليتي الخاصة."
ثم أحضر من هناك خريطة تخطيطية تقريبية للتبت.
قال وهو يضع الخريطة على السجادة أمامنا: "الالتزام الوحيد الملقى على عاتقكم هو التعهد بعدم الكشف عن موقعها الدقيق".¬
وعدته بذلك، فأراني على الفور موقع الوادي على الخريطة.

أقترح عليك المغادرة صباح الغد الباكر. سأطلب من أحد خدمي مرافقتك حتى المساء لتتمكن من مغادرة هذه المنطقة، حيث يُنظر إلى جميع الغرباء بشيء من الريبة. سأعطيك أيضًا رسالة تُثبت أنك من أهل بيتي. إذا أزعجك المسؤولون أو اللامات، فأرِهم الرسالة.
شرب ناربو محتويات كوب آخر من الشاي. خلال النصف ساعة الماضية، كان يلتهم محتويات كوب تلو الآخر بمعدل كوب كل خمس دقائق. وكانت أكوابًا كبيرة الحجم. وكان يضيف السكر في كل مرة. لا يستطيع تحمل تكلفة ذلك إلا التبتيون الأثرياء جدًا. ولأن السكر باهظ الثمن مقارنة بدخل عامة التبتيين، فإن التبتيين من ذوي الدخل المحدود لا يضيفون السكر إلى شاييهم. حتى في المناسبات النادرة التي لا يخلطونه فيها بالزبدة ودقيق الشعير، لا يذيبون السكر في الشاي، بل يكتفون بلمسه من حين لآخر بطرف لسانهم، يبتلعون السائل على فترات.
"هذا هو الكأس التاسع منذ أن أتيت إلى هنا،" لاحظ ناربو. "هل خطر ببالك يوماً أن الرقم تسعة رقم مبارك للغاية؟"
أجبتُ: "لقد درستُ مختلف الفلسفات الباطنية، ولديّ آرائي الخاصة حول علم الأعداد، وهي نتاج تفكير مستقلّ عميق. ولا أعتقد أن الرقم تسعة رقمٌ مُبارك".¬
"لماذا ؟"
أجبت: "أعتقد أنه لا ينبغي للإنسان أن يذهب بتكهناته العددية إلى ما هو أبعد من الرقم خمسة".
"لماذا ذلك؟"
"خمسة هو رقم الإنسان. الأرقام الأعلى تؤدي إلى التعقيد والهلاك، والأرقام الأصغر تؤدي إلى الله."
"لكن بالتأكيد الرقم تسعة موجود"
"بالتأكيد، لأن نظام العد التقليدي يصل إلى تسعة، ثم يصبح الرقم عشرة بشكل تعسفي تمامًا هو الوحدة الأعلى. يمكننا ببساطة
وكذلك سنعتمد نظامًا يقتصر فيه عدد الأرقام على أربعة فقط، وهي واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة - حيث يمثل الرقم خمسة الوحدة الأعلى. عندها لن يكون هناك وجود للرقم تسعة، ولا للأرقام ستة وسبعة وثمانية، والتي أرى - من منظور حسابي - أنها جميعًا أرقامٌ تدل على التعقيد والتشابك والإغراء.¬
"يا لها من فكرة مبتكرة!" هتف ناربو. "لقد درست علم الأعداد* لسنوات عديدة. إن دلالاته الخفية هائلة. فالأرقام لها صلة خفية بالمفاهيم المجردة التي نربطها بها. وبهذه الطريقة، يمكن جعل الأرقام نوعًا من الوسيط بين الإلهي والإنسان."
"علم الأعداد ذو حدين للغاية،" لاحظتُ، "على الرغم من أنه يبدو غير ضار تماماً."
قال ناربو: "لنفترض أننا انتقلنا إلى مفاهيم علم الأعداد الملموسة. مع أنك تبدو مترددًا في الخوض في تجريدات علم الأعداد التي تتجاوز الرقم خمسة، فربما لا تمانع في أن نتناول الأرقام واحد واثنين وثلاثة وأربعة وخمسة. خذ واحدًا على سبيل المثال: إنه رقم الوحدة - رقم الألوهية غير المتجلية. أعتقد أنك ستوافق على هذا."
"نعم،" لاحظت، "أفعل. إذا تخيلنا نقطة في الفضاء، فهي مجرد تجريد، لأن النقطة في الواقع غير مادية. لذا فإن الواحد هو عدد الوجود المجرد غير المنقسم."
"أنا مندهش من إدخالك للمفاهيم الهندسية في مجال علم الأعداد. إنها فكرة مبتكرة للغاية"، هكذا علّق ناربو. "والآن، دعونا نتناول..."

♦ فلسفة الأشكال المجردة.

و إن المحادثة التالية حول علم الأعداد لها صلة ببعض الملاحظات التي أدلى بها المؤلف في كتاب "الكمية السرية الغامضة للمبتدئين" الموصوف لاحقًا في الكتاب.¬
أخوية سرية 87الشكل اثنان. إنه يمثل التباين بين الروح والمادة.
قلت: "أنا أختلف معك اختلافاً جذرياً في هذا الأمر".
"هل تنكر أن اثنين هو عدد التناقضات؟" سأل ناربو بدهشة بالغة.¬
أجبتُ: "أوافق على أن الرقم اثنين يُمثل عدد التناقضات، لكن ليس التناقض الذي ذكرته للتو. إذا أخذنا نقطتين في الفضاء، فإنهما تُحددان موضع خط مستقيم، وهو أيضاً غير مادي. لكن يبقى أن نرى ما هو التناقض المجرد الذي يعكسه الشكل اثنان. تقول إنه التناقض بين الروح والمادة. في رأيي، أنت مخطئ. الروح مفهوم مجرد، أما المادة فليست كذلك. لذا، فإن الخط المجرد الذي يُمثله الشكل اثنان، والذي يربط بين نقطتين، كل منهما غير مادي، هو في الحقيقة التناقض بين نوعين مختلفين من الروح، وليس بين الروح والمادة."
صمت ناربو لبعض الوقت ثم قال: "يبدو أنك محق؛ لكن هذا لم يخطر ببالي قط. أشعر أكثر فأكثر بمدى فائدتك لنا في المدينة السرية في وادي الغموض".
لأول مرة ذكر مدينة سرية.
وتابعتُ: "لا بد من وجود نوعين مختلفين تماماً من الروحانية، وهما متناقضان تماماً. وهذا، في رأيي، هو الدلالة العددية للرقم اثنين".
ثم ناقشنا العددين ثلاثة وأربعة، واتفقنا على أن ثلاثة هو العدد الديناميكي بامتياز، وأربعة هو عدد المادة. ثلاث نقاط متناثرة في الفضاء تحدد موقع نقطة ما.
لاحظتُ وجود مثلث، لكن أربع نقاط مجردة فقط تُحدد ملامح شكل هندسي ذي وجود مادي. لذا، بثلاث نقاط نخرج من عالم التجريد، وبأربع نقاط ندخل عالم الملموس. أربعة هو عدد الكون المرئي، عدد المادة.
قال ناربو مبتسماً: "لم نصل بعد إلى الأرقام الخطيرة".
تابعتُ قائلًا: "إذا تخيلنا خمس نقاط متناثرة في الفضاء، وسميناها أ، ب، ج، د، هـ، فقد نتصور أ، ب، ج، د فقط، فنحصل على شكل هندسي. ولكن يمكننا أيضًا ربط أ، ب، ج، هـ، فنحصل على شكل هندسي آخر. في الواقع، يمكننا الحصول على خمسة تركيبات مختلفة، وهي: أ ب ج د، أ ب ج هـ، أ ب د هـ، أ ج د هـ، ب ج د هـ. إذن، يمثل الرقم خمسة تداخل خمسة فضاءات مختلفة. مع الرقم خمسة، يكون الكائن قد بلغ أقصى حدود وجوده. الرقم خمسة هو عدد الكائن وعدد الحياة الظاهرة التي تبدو موجودة في آن واحد على خمسة مستويات. يعيش الإنسان، إن جاز التعبير، في خمسة عوالم مختلفة، وهي: العالم المادي، وعوالم الإحساس، والشعور، والذكاء، والإرادة. هذه خمسة عوالم تتداخل فيما بينها."¬
وتابعتُ: "إذا تخيلنا ست نقاط متناثرة في الفضاء، فإنّ تصوراً هندسياً تركيبياً للروابط المختلفة بين هذه النقاط الستّ يتجاوز قدرة الإنسان. وكما ذكرتُ سابقاً، فإنّ الأرقام التي تتجاوز الخمسة - من منظور علم الأعداد - لها تأثيرٌ مُفكِّك على شخصية الإنسان. إنها أرقام الهلاك."
كان ناربو غارقاً في التفكير.
لقد علمتني الكثير خلال هذه الفترة القليلة
قال بعد برهة: "دقائق". "من الجيد أحيانًا أن نسمع عن مفاهيم تختلف تمامًا عن تلك التي اعتدنا عليها. بالمناسبة، هل يمكنك أن تعطيني تعريفًا موجزًا لماهية المادة حقًا؟"

أجبت قائلاً: "يمكن اعتبار المادة ساحة معركة تتصارع فيها نوعان مختلفان من الروحانية".
"هذا هو موضع اختلافنا مرة أخرى"، لاحظ ناربو. "لطالما اعتقدت أن هناك نوعًا واحدًا فقط من الروحانية".
قلت: "أعتقد أن هذه مسألة يجب أن تُحسم بالتجربة لا بالجدل".
"سنناقش هذا الأمر بمزيد من التفصيل في المدينة السرية"، هذا ما لاحظه ناربو.
للمرة الثانية ألمح إلى وجود مدينة سرية.
ثم شرع في إطلاعي على أجزاء منزله المختلفة. كان لديه أيضاً حديقة واسعة، وهو أمر نادر في المنطقة، إذ قلّما نجد حدائق ومتنزهات في التبت خارج منطقة لاسا. كان ودوداً للغاية، وأعرب عن تقديره الكبير لوجودي معه. شعرتُ بصدقه التام، وأنه لم يكن يتصنّع أبداً.¬
اقترب منه خادم معلناً عن زائرين اثنين من ذوي المكانة الرفيعة، ثم ذهب ليصطحبهما إلى نوع من غرفة الاستقبال المفروشة بأناقة.
"ربما من الأفضل لك ألا تتحدث إليهم"، لاحظ ناربو. "أقترح أن تنتظرني هنا، وإذا طال غيابي، يمكنك الصعود إلى مكتبي أو المكتبة أو الحديقة."
ابتسم صاحب السعادة وتوجه إلى غرفة الاستقبال.¬
بعد ثوانٍ قليلة، مرّ بي مسؤول تبتي رفيع المستوى، يرافقه خادم وضابط تبتي. عندما رأى قميصي الرخيص نظر إليّ بازدراء واضح، لأنه لم يكن يعلم بالطبع أنني ضيف ناربو؛ ولكن عندما فتح خادم آخر باب غرفة الاستقبال، تحولت غطرسته المتعجرفة فجأة إلى تملق يشبه تملق الضفدع وهو يحيي ناربو الذي جاء إلى العتبة لمقابلته.
بعد مغادرة الزوار، انضم إليّ ناربو على الفور، وبعد ذلك بوقت قصير قُدّمت لنا وجبة دسمة، تضمنت أطعمة شهية كالبطاطا والأرز والتفاح، وهي أطعمة نادراً ما يتناولها عامة التبتيين لارتفاع ثمنها. ثم أحضر لنا خادم آخر مراراً وتكراراً طبقاً فضياً فيه ماء فاتر لغسل أيدينا.¬
بعد العشاء ذهبنا إلى المكتبة. على الرغم من أن معظم الكتب كانت باللغة التبتية، بالطبع، إلا أن هناك عددًا لا بأس به من الكتب الإنجليزية فيها، بما في ذلك أعمال حديثة نسبيًا حول الخوارق والمسائل السياسية والاجتماعية.¬
سألته: "هل توجد مكتبة أيضاً في وادي الغموض؟"
أجاب: "نعم، ولكن لا يُسمح بالدخول إلا لأعضاء الأخوية. ستذهب إلى هناك كضيفي - وعلى مسؤوليتي الشخصية الكاملة - ولكن لا يُسمح للضيوف بزيارة مكتبة المدينة المحرمة إلا إذا حصلوا على تصريح خاص."
إذن لا يمكن منحه إلا من قبل رئيس التسلسل الهرمي الباطني، الذي ندعوه باحترام أمير النور.
رسم ناربو رسماً تخطيطياً ثم سلمه لي قائلاً:
«هذا الرسم التخطيطي يوضح لك أفضل طريق للوصول إلى الوادي. هل تسمح لي بإضافة بعض المال لتغطية نفقاتك خلال الرحلة؟» أخذ رزمة من الأوراق النقدية التبتية الجديدة وحفنة من العملات الفضية من درج.
قلتُ: "لا، هذا لطفٌ منك، لكنني أسافر وحدي وأقابل قطاع طرق بين الحين والآخر. لا فائدة من حمل كل هذا المال، إذ سيُسرق مني على الأرجح في المرة القادمة التي أقابلهم فيها. ما زلت أحتفظ ببعض النقود المعدنية التي أخفيها بعناية في حذائي. لا أستطيع أخذ المزيد."

قال ناربو: "أنا آسف، لكنني لاحظت أن حذائك لم يعد في حالة جيدة. إذا سمحت لي بإعارتك زوجًا جديدًا ومريحًا من الأحذية الجلدية و"تشوبا" جديدة، فسأكون سعيدًا جدًا جدًا."
ثم قضيت معظم فترة ما بعد الظهر في المكتبة.
بعد تناول وجبة عشاء دسمة قدمها ثلاثة خدم، ونزهة أخرى في الحديقة، اصطحبني ناربو إلى إحدى غرف الضيوف في الطابق الأول. ثم أمضيت بضع ساعات في إصلاح معداتي، وحاولت النوم بعد غروب الشمس بساعتين تقريبًا، وهو أمر في غاية الصعوبة.
في الجزء المأهول من التبت، حيث لا يُبدي معظم التبتيين أي مراعاة تُذكر لمن يرغبون في النوم، تمامًا كما هو الحال في بعض أجزاء قارة أوروبا. ولأنّ معبد ناربو كان محاطًا بالعديد من المنازل التبتية، فقد استمرت الأصوات المختلفة دون انقطاع حتى وقت متأخر من الليل.
في الساعة الخامسة صباحاً، نهض ناربو، صاحب القلب الطيب والمضياف، بنفسه ليتأكد من أن الخدم يعتنون بي على النحو الواجب، وبعد تناول وجبة إفطار مبكرة بصحبة مضيفي، غادرت منزله برفقة أحد خدمه الموثوق بهم، والذي كانت لديه تعليمات بمرافقتي حتى أغادر المنطقة المأهولة.
قبل مغادرتي، أخبرني ناربو أنه سيغادر منزله إلى وادي الأسرار على ظهر حصان بعد يوم أو يومين، وسلّمني رسالة تعريف. وأضاف أنه أرسل بالفعل رسالةً تُعلن وصولي إلى مدينة المُبتدئين بواسطة رسولٍ على ظهر حصان، كان قد غادر في اليوم السابق.
بعد أن تركني خادم ناربو ليعود إلى أغنية سيده، لم يكن لدي سوى تجربة واحدة تستحق التسجيل قبل أن أصل إلى وادي الغموض.
وفي اليوم التالي صادفت مجموعة من الزهاد التبتيين الذين كانوا يعتقدون أنه من الممكن تحقيق نتائج روحية من خلال الصيام والتمارين الأخرى التي لها تأثير مباشر على الجسم.
كان اعتقادهم باختصار كما يلي:
الإنسان روح ومادة في آن واحد. الروح حاضرة في كل مكان، ثابتة لا تتزعزع، وإلهية بذاتها.¬
أخوية سريةجوهر الأمر. لذا، كل ما على الإنسان فعله هو الاهتمام بالقناة التي يتجلى من خلالها الروح، أي جسده، وبالتالي سيتدفق الروح من خلاله دون عائق، وسيصبح الإنسان روحانيًا تلقائيًا.
صام هؤلاء الزهاد ذوو الحمض النووي البشري، وخلال صيامهم وتمارينهم البدنية الأخرى، التي تهدف إلى الحفاظ على نقاء أجسادهم، كانوا، بطبيعة الحال، شديدي الوعي بأجسادهم. بدت تمارينهم وكأنها نوع غريب من انفصال وعي الإنسان عن جسده، وذلك بتركيز كل إدراكه فيه.
كانت تجربة فريدة من نوعها أن ألتقي بأناس في التبت يعتنون بأجسادهم عناية فائقة. بدا أن هذا الاهتمام الدقيق بأجسادهم فكرة راسخة لدى هذا النوع من الزهاد. فهم يرون أن الزبدة ليست نقية بما يكفي لتنظيف أجسادهم، ويستبدلونها بالخردل والزيت، وهما أغلى بكثير مما يستطيع معظم التبتيين تحمله.
إذا ركز شخص ما كل اهتمامه على جسده، واستخدم في سبيل ذلك أشياء مختارة باهظة الثمن، فلا عجب أن يكون أكثر أنانية في حياته اليومية من الشخص العادي الذي لا يجعل العناية بجسده ديانة. هؤلاء الزهاد ليسوا كثيرين، ويقدمون الطريقة المعتادة لتنظيف الجسم في التبت هي فركه بقطعة من الزبدة. قد يستغرب بعض القراء هذه المعلومة، لكن الكاتب وجد أن الزبدة فعلاً لها تأثير تنظيف ممتاز على الجسم. لم يُستخدم الصابون في الغرب إلا خلال القرون القليلة الماضية، وكان الرومان القدماء، الذين عُرفوا بنظافتهم الشديدة لكثرة حماماتهم العامة، يستخدمون الزيت لتنظيف أجسادهم. كما يبدو أن للخردل وصفار البيض تأثيراً تنظيفياً قوياً على جسم الإنسان.

تناقض غريب مع الجموع التبتية التي تهمل أجسادها تماماً.
يصوم هؤلاء الزهاد من وقت لآخر لفترات طويلة، ولكن لماذا يصوم هؤلاء الناس؟ لأنهم يريدون أن يكونوا روحانيين وسعداء وأصحاء، ولأنهم يتوقعون أن يكونوا قادرين على إطالة أعمارهم بشكل كبير من خلال العناية الجيدة بأجسادهم.
تذكرتُ أحد دعاة الصحة الغربيين الذين أعرفهم. يبلغ من العمر ستين عامًا تقريبًا، وقد اعتنى بكليتيه عناية فائقة طوال أربعين عامًا بتجنب الأطعمة الضارة بهما. وهو الآن يعاني من مرض كلوي خطير، يبدو أنه ناجم عن خوفه الدائم على كليتيه.
من المؤكد أن الروحانية لا تُنال بالممارسات الجسدية. ومن جهة أخرى، من الحماقة إهمال الجسد. أعتقد أن هؤلاء الزهاد المتدينين بحاجة ماسة إلى جرعة من المنطق السليم.

الفصل الثالث

مدينة المبتدئين تحت الأرض

علمتُ من ناربو أن مدينة المُريدين مركزٌ هامٌ يقع في وادي الغموض على بُعد حوالي عشرين ميلاً من أقرب قرية. تساءلتُ مراراً وتكراراً كيف يُمكن لمدينةٍ بأكملها أن تُبعد الزوار غير المرغوب فيهم والحشود الفضولية، لا سيما بعد أن أخبرني ناربو أن المدينة لم تكن مُحاطةً بأسوارٍ أو خنادق، بل لم تكن حتى مُؤمّنة، إذ إن ديراً تبتياً عادياً كان أكثر حمايةً منها بكثير.
في أحد الوديان الجانبية الصغيرة لوادي سانغبو، لم أستطع مقاومة إغراء سؤال مزارع تبتي شاب بشكل عابر عما إذا كان قد سمع بوادي الغموض. نظر إليّ نظرة غريبة وأجاب: "أنا، أنا!"* لكن كان هناك شيء في سلوكه يوحي للمراقب المتأمل بأنه يعرف شيئًا عنه، لكنه متردد في الحديث. كان وادي الغموض على بُعد أقل من ثلاثة أيام سيرًا على الأقدام، وإذا كانت هناك بالفعل مدينة يسكنها مئات الأشخاص، فمن المستبعد ألا يكون قد سمع بوجودها قط.
أصررتُ قائلاً: "لا بد أن وادي الغموض موجود، لأني ذاهب إليه".
انتفض ثم لاحظ، بصوت منخفض يكاد يكون مرتجفاً:
"بالطبع، معظمنا يعلم بوجود المدينة، لكن من المتعارف عليه بيننا ألا نتحدث عنها أبداً، أو حتى أن نذكر اسمها."
قلتُ، وأنا أُمعن النظر في رسم ناربو الذي رُسم بدقة ضابط في هيئة أركان غربية: "أعرف الطريق. لا أريد أن أُجبرك على الكلام، فسأكتشف كل شيء بنفسي قريبًا. أخبرني فقط لماذا مُنعتَ من الكلام، ومن يُجبر آلافًا من الناس على الصمت؟"
أجاب: "عقابٌ رهيبٌ يحلّ تلقائيًا على كلّ من يخالف هذه القاعدة. نعرف ذلك من واقع التجربة. في العام الماضي، نقل اثنان من أصدقائي بعض الشائعات التي سمعاها عن المدينة. فأصيبا بمرضٍ شديدٍ في الليلة نفسها، ونفقت جميع مواشيهما. يحدث الشيء نفسه، بل وأسوأ منه، لكلّ من يحاول الاقتراب من المدينة بدافع الفضول."
سألت: "هل جربت ذلك من قبل؟"
أجاب: "لا، وهذا آخر سؤال أستطيع الإجابة عليه. لم أذهب إلى هناك قط، لكن أحد أصدقائي حاول. لقد تجاوز الخط الحدودي الذي يفصل بين حدود المدينة، وعاد بعد فترة لينضم إلى أصدقائه الذين رافقوه. بدا أكبر بثلاث سنوات، وأصبح أبكم. لم يستطع الكلام لمدة ثلاثة أشهر. كانت شفتاه مشلولتين."

مضيت في طريقي.
لم أكن أميل إلى أخذ القصة على محمل الجد، رغم أن الفلاح بدا خائفًا للغاية. عندما تستحوذ هذه المخاوف على مجتمع بأكمله، يصبح الإيحاء الذاتي عاملًا بالغ التأثير. لماذا لا يؤدي الإيحاء الذاتي القوي إلى المرض والشلل؟ لقد وجدت حالات من هذا القبيل في مناطق أخرى من العالم.¬
وبعد يومين توجهت إلى مدينة المبتدئين.
كنت في الوادي المشار إليه في رسم ناربو.
في مكانٍ كان عرضه حوالي مئة ياردة، اختفى مجرى النهر فجأة. هناك، كانت تقف بضع ألواح حجرية كبيرة نُقشت عليها كلمة "حدود" بأحرف كبيرة. إذن، هذا هو "الخط الحدودي" الذي ذكره لي الفلاح التبتي!
واصلتُ سيري. بدا الوادي خلف الألواح الحجرية مطابقًا تمامًا للمنطقة على الجانب الآخر منه، باستثناء اختفاء مجرى النهر فجأة. مشيتُ بضع مئات من الأمتار، لكن لم تظهر أي مدينة. وبعد بضع مئات أخرى، اتسع الوادي تدريجيًا، لكن المدينة ظلت غائبة. بدأتُ أتساءل إن كنتُ قد ضللتُ الطريق.
بعد أن مشيت لبضع دقائق أخرى، لاحظت فجأة جدارًا حجريًا دائريًا يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أقدام وقطره حوالي عشرة ياردات، مُقامًا في وسط الوادي حيث كان عرضه حوالي 400 ياردة. كانت الأرض تنحدر بلطف شديد من ذلك الجدار الدائري في جميع الاتجاهات، وفي دائرة أوسع بكثير - نصف قطرها¬
والتي ربما كانت بطول 100 ياردة - كان هناك سبعة درابزينات رباعية الأضلاع.
اقتربت. وكلما اقتربت أكثر، كلما رأيت مدى الترتيب والترتيب الذي يبدو عليه كل شيء.¬
ثم لاحظت أن الدرابزينات السبعة كانت تحيط بسبع قطع أرض مربعة الشكل بالكامل مغطاة بألواح كبيرة مصنوعة من الزجاج. تبلغ مساحة كل ساحة مربعة حوالي أربعين ياردة في أربعين ياردة.
أمام كل فناء، كان هناك درج يؤدي إلى باب ضخم تحت الأرض. كان من الواضح أن الأفنية السبعة عبارة عن مبانٍ سكنية عديدة مبنية تحت الأرض، يدخلها الضوء من خلال أسقف زجاجية مسطحة على مستوى الأرض. أدركتُ على الفور فكرة مصمم هذه "المنازل" الغريبة*. سيكون من السهل تدفئتها في الشتاء. وفي الوقت نفسه، ستكون المدينة مقاومة للزلازل عمليًا، وبما أن "الأسقف" كانت على مستوى الأرض،¬
المدينة تحت الأرضيكفي مبلغ 99 لتغطية الأسطح الزجاجية بالرمل وإزالة الدرابزين والجدار الصغير في المنتصف، ما يُخفي المدينة بأكملها في حالات الطوارئ. وفي أسوأ الأحوال، يمكن حتى تغطية السلالم.
أضفى ضوء شمس الصباح بريقًا على الأسطح الزجاجية، وبدأت أتساءل كيف يحمي السكان أنفسهم من أشعة الشمس الحارقة في ظهيرة أيام الصيف اللاهبة، حين لاحظت أنبوبًا كبيرًا يمتد إلى ما يشبه الخزان في الجدار الدائري بالوسط، والذي كان يقع عند أعلى نقطة في السهل المنحدر بلطف. تتفرع من الخزان أنابيب أصغر باتجاه الأسطح الزجاجية، ومن المرجح أن درجة حرارة المنازل كانت تُخفض في ظهيرة أيام الصيف اللاهبة بتدفق مستمر للمياه فوق الأسطح الزجاجية.¬
نزلتُ أحد السلالم ووقفتُ أمام بابٍ ثقيل. لم يكن هناك أيّ وسيلةٍ تُتيح للزائر الإشارة إلى وجوده. طرقتُ بأصابعي، وبعد قليلٍ بقبضتي. لكن لم يأتِ أحدٌ ليفتح. خطرت لي فكرةُ الصعود إلى الأسطح الزجاجية والدوس عليها لإيقاظ أحدهم، لكنني وجدتُ أن هذا مستحيلٌ تمامًا، فالدرابزين كان يزيد ارتفاعه عن ثمانية أقدام، ومتينًا للغاية، ومُصمّمًا ببراعةٍ تجعلُ التسلّق فوقه مستحيلاً.

لم يكن بوسعي سوى التجول بحثًا عن أحد. لكن لم يكن هناك أحد في الخارج. بدا الأمر وكأنني في مدينة الموتى. ومع ذلك، ربما كانت الساعة التاسعة والنصف صباحًا!
قررت أن أقوم بنزهة قصيرة لاستكشاف الحي، على أمل أن ألتقي بأحدٍ ما.
عدتُ أدراجي. خرجتُ من المدينة في الاتجاه المعاكس، ولكن ما إن تجاوزتُ سياج آخر سطح زجاجي حتى وجدتُ نفسي مجدداً في الصحراء، وبعد ربع ميل، رأيتُ ألواحاً حجرية أخرى تحمل كلمة "حدود".
هذا كل شيء!
فاستدرتُ عائدًا. كانت مدينة المبتدئين تقع أمامي على بُعد بضع مئات من الأمتار، ولكن لو كنتُ قد أتيتُ إليها للمرة الأولى دون أن أعلم بوجودها، لما لاحظتُها. كانت السياجات الرقيقة، التي كانت بنفس لون الأرض تمامًا، بالكاد مرئية، وكان الجدار الدائري مخفيًا خلف نتوء صغير.
عندما عدت، رأيت أحدهم يصعد أحد السلالم السبعة. لم يكن من الضروري مناداته، فقد جاء لمقابلتي بسرعة كبيرة.
"حفر تشي لا إيروسأل بحدة: "؟"
كان يرتدي ثوباً من الحرير الرخيص وكان نظيفاً للغاية. كانت عيناه باردتين جداً. لم يكن هناك أي تعبير على وجهه.
أجبت: "لقد تلقيت دعوة للحضور إلى هنا".
"بواسطة من؟" بدا صوته أجوفًا تقريبًا، وكان غير شخصي في نبرته.
لقد ذكرت اسم ناربو.
سرعان ما تحول برودته وانعزاله إلى احترام كبير.
"الوقت مبكر جدًا يا سيدي؛ قليلٌ من الناس في المدينة يستيقظون قبل الظهر. تبدأ الحياة هنا في وقت مبكر من بعد الظهر. إذا كنت قد دُعيتَ إلى هنا، فستعلم لامو تشونف بذلك. عليك الانتظار. ربما ستخرج من القصر خلال ساعة."
"ماذا تريدين هنا؟" قالت الإلهة الصغيرة.
"القصر 1" صرخت.
"نعم، القصر"، كرر. "هذا هو القصر". وأشار إلى أحد الأسطح الزجاجية الرباعية.
انحنى باحترام ثم رحل.
طوال المحادثة، ظلت عيناه جامدة تماماً.
نظرتُ إليه وهو يبتعد. ثم صعد رجل آخر يرتدي ثوبًا قطنيًا من درج آخر. لم تُعجبني مشيته على الإطلاق. لم أستطع إلا أن أتذكر الدمية في أوبرا أوفنباخ الشهيرة. لم تكن هناك حياة في هذا الرجل، ولا ذرة من شخصيته. حتى أبرد خادم عاش لسنوات مع أبرد أرستقراطي في العالم سيكون بركانًا من الحياة والمشاعر مقارنةً به. عندما مرّ بجانبي، لمحتُ عينيه. كانتا شبه زجاجيتين، كعيون جثة هامدة.
لأستغل وقتي، فحصت كل شيء بدقة متناهية. لم أكن قد استكشفت الجدار بعد، ولم أنحنِ فوقه. كان مبنيًا حول عمود رأسي. نظرت إلى الأسفل. بدا عميقًا للغاية. أجهدت عينيّ. انحدر إلى الأسفل، وبدا وكأنه يختفي في جوف الأرض. بحثت عن حجر. فكرتُ: لو ألقيتُ حجرًا متوسط الحجم، يزن حوالي عشرة أرطال، لأمكنني تحديد عمقه. كانت المدينة نظيفة للغاية لدرجة أن الأرض خالية من أي حجر. اضطررتُ للمشي خمس دقائق على الأقل لأحضر بعض الأحجار متوسطة الحجم.¬
ألقيتُ بواحدةٍ منها في البئر وأصغيت. مرت عشر ثوانٍ ولم يُسمع أي صوت. مرت عشرون، ثلاثون، أربعون، خمسون ثانية

ومع ذلك لم يصدر أي صوت. ألقيت حجراً ثقيلاً ثانياً وانحنيت فوق الجدار. لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق!
مشيتُ نحو سفح الجبل مرة ثانية، وأحضرتُ حجراً كبيراً يزن عشرين رطلاً على الأقل. أخرجتُ قاربي المطاطي من الحقيبة المصنوعة من جلد الغنم التي كان مخبأً فيها، وبمساعدة خيوط ودبابيس أمان، حوّلته إلى سماعة أذن كبيرة، وثبّتّه على جدار البئر، مع توجيه الفتحة الواسعة إلى الأسفل.
ثم ألقيتُ الحجر الثقيل وأصغيتُ عبر سماعة الأذن بانتباه شديد. مرت عشر ثوانٍ، ثم عشرون، ثم ثلاثون، ولم أسمع أي صوت بعد. كنتُ في غاية الترقب. بعد حوالي خمس وثلاثين ثانية، سمعتُ صوت الحجر الثقيل وهو يشق طريقه بعنف على طول جدار البئر. استمر احتكاكه بالجدار لعدة ثوانٍ، ولكن بحلول الثانية الأربعين لم يكن قد وصل إلى القاع بعد. أصغيتُ عبر سماعة الأذن لدقيقة أخرى، لكنني لم أسمع أدنى صوت.
لا شك أن هذا كان موضوعًا مثيرًا للاهتمام للدراسة لأي مستكشف، وقد مشيت مرة أخرى إلى جانب الجبل وعدت بقطعة من الصخور تزن ما يزيد قليلاً عن ثلاثين رطلاً.¬
في تلك اللحظة، ركض رجل تبتي آخر نحوي من أحد السلالم، قائلاً:
"سيدي، ضيفنا الكريم، نرجو منك بكل احترام عدم إلقاء الحجارة في البئر."¬
نظر إليّ ببرود بعينيه الزجاجيتين ثم انصرف.
بعد ذلك بوقت قصير، بدت المدينة وكأنها تستيقظ على الحياة. صعد الناس السلالم المختلفة، وكان معظمهم وكان بعضهم يرتدي أثوابًا قطنية متواضعة، بينما ارتدى آخرون الحرير. بدا أن السكان ينتمون إلى فئتين مختلفتين. أولئك الذين ارتدوا الحرير تحركوا كالبشر. عندما مر بعضهم بي وأنا أتكئ على جدار البئر، حيّوني دون أن يتوقفوا أو يطرحوا أي أسئلة. كانت وجوههم جميلة في معظم الحالات، وبعض النساء كنّ جميلات جدًا. فقط عيونهم كانت تحمل تعبيرًا كئيبًا. لم يضحك أحد منهم، والذين تحدثوا مع بعضهم البعض أثناء انتقالهم من مبنى إلى آخر كانوا يتحدثون بصوت منخفض للغاية.
كان الأشخاص الذين يرتدون قمصانًا قطنية مختلفة تمامًا. كانوا أكثر عددًا من غيرهم، ويبدو أنهم خدم المستعمرة. حتى أن بعض الأطفال كانوا ينتمون إلى هذه الفئة. كان منظر هذه الفئة بشعًا للغاية. كانوا يتصرفون كآلات، وعيونهم تشبه عيون الجثث بشكل غريب.
بدأت أشعر ببعض الانزعاج. لكنني تذكرت دولما الصغيرة الجميلة المفعمة بالحيوية والحماس، وناربو الذكية والنشيطة والطيبة القلب. هل يُعقل أن يُعرّفني هؤلاء على جماعة لا تخدم غاية النور؟ ألم يُخبرني أحدٌ أن مدينة المُريدين تُدافع عن أسمى المبادئ؟ ألم تكن تسعى لمساعدة العالم؟
ثم بدا كل شيء في المدينة مرتباً للغاية، وعملياً للغاية، ومنظماً بشكل ملحوظ. حتى أن تصميم المدينة نفسه كان يحمل بصمة عبقرية لا لبس فيها.¬¬
مرّ عدد قليل من الأطفال يرتدون ملابس قطنية
كنتُ أحملُ طرودًا ثقيلةً على الحائط. أسقطت فتاةٌ صغيرةٌ طردًا بينما كانت تمرّ بجانبي. انحنيتُ لأساعدها في التقاطه. التقت أعيننا. لم أرَ قطّ مثل هذه العيون في طفل. لم تكن فيها حياة، ولا فرح، ولا حماس، فقط تعبيرٌ رتيبٌ لعقلٍ يعمل آليًا. أخذت الطرد دون أن تنطق بكلمة أو تبتسم، ومضت في طريقها. مرة أخرى، اضطررت للتفكير في روبوت أو جثة هائمة.
في تلك اللحظة، اقترب مني أحد الروبوتات البالغة، مرتدياً زيّاً تقليدياً، ونظر إليّ بنظرة جامدة وقال:
"سيدي، ضيفنا، لامو تشون، سيستقبلك عند مدخل القصر."

مشيتُ إلى أحد السلالم التي كان يرشدني إليها الخادم الجامد. صعدت سيدة شابة، ترتدي ثوباً أنيقاً من الحرير الأبيض النقي ذي الجودة الممتازة، الدرج واستقبلتني بابتسامة.
قالت بصوت منخفض جداً: "أهلاً وسهلاً! كنا نعلم أنك قادم."
أجبت باللغة التبتية: "لقد وصلت إلى هنا هذا الصباح، ولكن لم تتح لي الفرصة لمقابلة أي شخص في البداية".¬
أجابت: "نستيقظ متأخرين جدًا في المدينة المقدسة. يُقدَّم الفطور في قاعة الطعام" - وأشارت إلى أحد الأسقف الزجاجية الأخرى - "في تمام الساعة الواحدة. جميع أعضائنا وضيوفنا حاضرون حينها".
ألقت نظرة خاطفة على أمتعتي. "سأطلب نقل هذه الأشياء إلى غرفتك". وأشارت إلى أحد الخدم الذين يرتدون ملابس قطنية.
المدينة تحت الأرض 105تشو-باس،من استولى على أغراضي؟ قالت الخادمة: "ستقيمين في بيت الضيافة هناك". ثم انصرفت حاملةً أغراضي. "أنتِ ثاني شخص أبيض يزور المدينة المقدسة"، ثم أضافت بإنجليزية ركيكة: "لقد زارنا هنا العديد من الأشخاص من الهند، ولكن شخصًا واحدًا فقط من الغرب".
سألت هذه المرة باللغة الإنجليزية: "هل عاد؟"
أجابت: "لا، للأسف، لقد مات هنا. وهو مدفون في المدينة المقدسة".
"هل سيكون من المبالغة أن أطلب منك أن يريني أحدهم قبره غداً؟" سألتُه مجازفاً.
"بالتأكيد لا"، تابعت حديثها باللغة الإنجليزية المفهومة إلى حد ما. "سأريكم ذلك بنفسي".¬
مشينا بضع عشرات من الأمتار إلى الدرج التالي.¬
قالت: "هذا هو مبنى المعبد. نسميه لباهانغ". ثم أخرجت مفتاحاً ذهبياً وفتحت الباب.
"من فضلك يا سيدي، تفضل بالدخول أولاً."
كان أهل المدينة المقدسة في غاية الأدب. دخلنا ممرًا. كان الضوء ساطعًا لدرجة تكاد تُؤذي العين، فالسقف بأكمله مصنوع من الزجاج، وضوء النهار الساطع يغمر المكان من خلاله. فتحت الباب الثقيل المقابل بقوة. كانت الجدران مغطاة برموز سحرية غريبة وشعر مستعار.
وقالت: "هذا هو بيت الموتى. عندما يموت شخص ما في المدينة المقدسة، يتم الاحتفاظ بجثمانه هنا حتى يتم دفنه".¬
"إلى متى؟"
أجابت لا-مو-تشون: "لمدة سبعة أيام". وتابعت: "يوجد ثلاثة طوابق في هذا المبنى. بيت الموتى في الطابق العلوي، ومعبدنا في الطابق الذي يليه مباشرة، ومكان الدفن في الطابق الذي يلي المعبد".
خرجنا من الباب وأغلقته بإحكام.
أثناء نزولنا إلى الطابق السفلي، مررنا بباب المعبد الذي بدا وكأنه مصنوع من الذهب الخالص. ربما كانت طبقة الذهب سطحية، ولكن حتى في هذه الحالة، كان الوهم كاملاً.
قالت: "أنا آسفة لعدم تمكني من إطلاعكم على المعبد. يُسمح فقط لأعضاء الأخوية المقدسة بالدخول. أما بالنسبة للضيوف، فيتطلب الأمر إذناً خاصاً من أميرنا، لكنه ليس في المدينة حالياً."
نزلنا إلى الطابق السفلي. كان الضوء في الممر خافتاً جداً، إذ كان يتسلل عبر ثلاثة أسقف زجاجية. أخرجت مفتاحاً ذهبياً مرة أخرى وفتحت قاعة كبيرة. قالت: "هذه مقبرتنا. ستجدون قبر الغربي في الزاوية هناك. إنه الثاني من اليمين."

صعدتُ إلى اللوح الحجري. كان مكتوبًا عليه اسم تبتي. قرأته بتأنٍّ شديد، لكنني وجدت أنه لا يبدو غريبًا على الإطلاق. ربما دُفن بالاسم التبتي الذي عُرف به في المدينة.¬
كنت أتردد أمام بعض الألواح الحجرية الأخرى عندما قالت:
"إذا رغبت، سأريك سريعًا المباني الأخرى. وبما أنه غائب، يمكنني حتى أن أريك حديقته الخاصة. إذا أسرعنا قليلًا، يمكنني أن أريك جميع المباني في المدينة المقدسة باستثناء..."
المدينة تحت الأرض107 بالطبع، قصره. آمل أن يمنحك لقاءً عند عودته، وحينها قد ترى هذا أيضًا.
صعدنا إلى الطابق العلوي، وأخذتني إلى المبنى الواقع على الجانب الآخر من القصر.
عندما فتحت الباب الثقيل، لم أصدق عينيّ. كانت هناك قاعة كبيرة تبلغ مساحتها حوالي أربعين ياردة مربعة، مليئة بالزهور الفاتنة. كان البيت الزجاجي لا يقل روعة عن أفضل البيوت الزجاجية في الحدائق النباتية في الغرب. كانت القاعة مقسمة إلى أقسام مختلفة، تُحافظ على درجات حرارة متفاوتة بواسطة أنابيب المياه الساخنة.
لم يكن البيت الزجاجي شيئاً استثنائياً في حد ذاته، لكن بدا الأمر أشبه بمعجزة أن تجد شيئاً كهذا في وادٍ تبتي.
قالت بكل احترام: "هذه حديقته الخاصة. هنا يتفضل أميرنا، ماني ريمبوتشي، الجوهرة السامية أو أمير النور، بالتنزه بعد الظهر. ويرتبط البيت الزجاجي بالقصر مباشرةً عبر ممر تحت الأرض."
دخلنا إلى حجرة كانت تُحفظ فيها النباتات الاستوائية.
"هل لي أن أسألك عن نوع الوقود الذي تستخدمه في المدينة المقدسة في نظام التدفئة المركزية لديك؟"
أجابت: "نحن نستخدم الكحول. إنه يحترق بدون دخان."
"من أين حصلت عليه؟"
"نقوم بتقطيره بأنفسنا. يقع معمل التقطير في المبنى المقابل مباشرة. ويُستخدم المبنى للتقطير والطبخ وغسل البياضات ومراكز الصرف الصحي، بالإضافة إلى كونه مبنى سكنياً لعدة مئات من الخدم."¬
غادرنا البيت الزجاجي.
قالت: "المبنى هناك هو منزل سكن أعضائنا. ستسكنون في بيت الضيافة المقابل. يمكنكم الدخول والخروج وقتما تشاؤون. سترون مبنى الطعام قريباً جداً، عندما نتناول الإفطار. سأريكم الآن سريعاً المبنى المستخدم للطبخ والتنظيف."
توجهنا إلى "المبنى" الآخر ونزلنا إلى الطابق السفلي. كان باب ثقيل مفتوحًا على مصراعيه. وُضِعَ إعلان كبير يُفيد بضرورة استخدام الأعضاء والضيوف والخدم لدورات المياه في ذلك المبنى، المتصل بالمباني الأخرى عبر ممرات تحت الأرض لهذا الغرض.
"ألن يكون من العملي أكثر تركيب مرافق صحية في كل مبنى من المباني الأخرى؟" تجرأت على سؤال مشرف المبنى، وهو رجل في منتصف العمر يرتدي رداءً حريريًا رخيصًا.
قال: "لا، هناك أسباب خفية وراء هذه القاعدة الصارمة. كل المواد العضوية النجسة هنا تُلقى فورًا في نارٍ تُوقد ليلًا ونهارًا. على كل شخص في المدينة المقدسة أن يتحمل مشقة المشي بضع مئات من الأمتار من مبناه إلى هذا المكان. هذه تضحية تُقدم من أجل طهارة المدينة المقدسة."¬

بقوله هذا، دلّت نبرته على ازدراءٍ كبيرٍ لـ"المادة العضوية غير النقية". لم يسعني إلا أن أفكر أن احترام الخالق يستلزم تلقائيًا احترامًا عميقًا لأجسادنا، وأن ازدراء الاحتياجات الجسدية ليس إلا خطيئة. حتى ذلك الحين، كنتُ أتعامل مع كل ما أراه أو أسمعه في مدينة المُريدين بنظرةٍ نقديةٍ وواقعيةٍ شديدة.¬
الغريب في الأمر، أنه بعد تناول وجبتي الأولى في مبنى الطعام، توقفت عن النظر إلى الأمور بهذه الطريقة، وأصبحت فجأة متحمسًا لكل شيء في المدينة المقدسة كما لو أنني ابتلعت مع الطعام قدرة غريبة على الحماس غير المشروط.
حضر مئات من أعضاء وضيوف الأخوية المقدسة إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الإفطار. وقُدّمت الوجبة في قاعة كبيرة تبلغ مساحتها حوالي أربعين ياردة في أربعين ياردة. وكانت هناك العديد من المنصات المرتفعة. كان المشاركون يجلسون على سجاد سميك في حلقات تضم تسعة أشخاص، يجلس كل منهم على وسادة فاخرة من أجود الأنواع. وكان العشرات من هؤلاء الخدم الكئيبين - الذين لم أكن أطيقهم حتى تناولت أول وجبة لي في المدينة المقدسة - يتحركون بصمت على سجاد سميك. وكان الطعام يُنقل من المطبخ ومبنى الصرف الصحي عبر ممر تحت الأرض. بدا كل شيء منظمًا للغاية. كان الخدم يأتون ويذهبون على فترات منتظمة، بل بدا أن أحدهم يُنظم حركة المرور.
كان بعض الأعضاء يتحدثون الإنجليزية بلكنة ركيكة، تمامًا مثل لا-مو-تشون، وصادف أن جلس اثنان منهم في دائرتي. عندما رأيت الخادم ينظم حركة المرور عند مدخل الممر المؤدي إلى مبنى المطبخ، أطلقتُ نكتةً مفادها أن المدينة لديها ما يُعادل شرطة المرور في الغرب، وأتبعتُ النكتة بضحكة.
بدا على الآخرين الصدمة الشديدة. أُبلغتُ على الفور، بأدب ولكن بحزم شديد، من قِبَل شخص أشبه بمسؤول يرتدي حريرًا رخيصًا، أن الضحك ممنوع في المدينة المقدسة.¬
ثم علمت من الأعضاء الآخرين في مجموعتي أن الضحك والتحدث بصوت عالٍ ليسا فقط مخالفين للقواعد، بل إن الحديث بصوت منخفض هو المسموح به فقط.
كان من بين الحاضرين في دائرتي العديد من أصحاب البصيرة. كانوا فخورين للغاية بإنجازاتهم في العلوم الخفية. كما شعروا بالفخر لاختيارهم من قبل ماني ريمبوتشي، الجوهرة السامية، لخدمته في مهمته العظيمة المتمثلة في نشر النور في العالم.
كان الترتيب الهرمي الدقيق لأعضاء الأخوية المقدسة، برئاسة أمير النور أو الجوهرة السامية، والذي يُشار إليه أحيانًا باختصار بـ"هو"، سرًا. خضع الأعضاء لطقوس انضمام متتالية، كل منها ترفعهم إلى درجة أعلى في هرم النور. من بين الألقاب الرفيعة التي سمعتها أثناء إقامتي في وادي الأسرار، كانت هناك ألقاب مثل موزعي الحكمة الإلهية، وأساتذة النور، وتلاميذ النور، ومنقذي النفوس، وسادة الرحمة، والمعلمين المستنيرين، وما إلى ذلك.
ربط حامل اللقب بشكل أوثق برئيس الأخوية، وأعتقد أن حاملي أعلى الدرجات لم تكن لديهم شخصية منفصلة على الإطلاق وكانوا مجرد "وكلاء للإرادة الإلهية"، القلب والجسد والروح.
في مقابل تعهدهم بالولاء لـ "النور"، حصلوا على قوى خفية وطاقات روحية أكبر على أساس أن يتم استخدامها جميعًا فقط لمصلحة الأخوية وليس لأي غرض آخر.
كان يُنظر إلى أي فكرة عن الجنس في المدينة المقدسة على أنها أمرٌ مُحتقر ولا يليق بكرامة هؤلاء الأشخاص ذوي الروحانية العالية.
نظرت حولي فرأيت لا-مو-تشون جالسة في إحدى الدوائر الأخرى على بُعد حوالي عشرة أمتار. بدا وكأن لا أحد يُدرك وجود "الجنس" في المدينة المقدسة عند النظر إلى رجل أو امرأة، مهما كان وسيماً أو جميلاً.

بعد الإفطار، كان عليّ الالتزام بالإجراء الشكلي الوحيد الإلزامي على زوار المدينة المقدسة. عند دخولي دار الضيافة، كان عليّ تسليم المشرف ورقة صغيرة كتبت عليها بضع كلمات بالأحرف التبتية.
دخلت غرفتي. كانت واسعة إلى حد ما ومضاءة بشكل رائع بفضل "النافذة" الضخمة التي تغطي السقف بأكمله. كان ذلك في وقت مبكر من ظهيرة يوم صيفي حار، ومع ذلك ظلت الغرفة باردة بفضل الجهاز الأوتوماتيكي المذكور سابقًا والذي يسمح بسكب كميات متفاوتة من الماء على الأسقف الزجاجية لتنظيم درجة الحرارة. وكانت التهوية تتم عبر نظام أنابيب ربما تؤدي إلى نوع من المراوح.
المبنى بأكمله، واستمر الخدم في العمل بشكل متواصل.*
بما أن المشرف كان يعلم أنني أبيض البشرة، فقد وضعوني في سرير غربي. كان باب الغرفة يُغلق من الداخل، وكان كل شيء نظيفًا للغاية. أخبرني المشرف أنه يُمكنني فعل كل شيء في غرفتي باستثناء الأكل وغسل ملابسي. قال إنه لا يجوز "تدنيس" الغرف بالأكل، وأن غسل الملابس وما شابه ذلك من اختصاص الخدم في مبنى الصرف الصحي.¬
بدا كل شيء على ما يرام من ناحية الراحة الجسدية، باستثناء احتمال الاضطرار إلى المشي مرارًا وتكرارًا لمسافة مئات الأمتار للوصول إلى دورة المياه. ولأنني رجل حرّ ومستقل، قررتُ على الفور تبسيط الأمور في هذا الصدد بتخصيص أكبر زجاجاتي لغرض مناسب، وهو ما حرمتني منه قواعد المنزل الصارمة.
بدا الجو النفسي العام للمدينة غريبًا للغاية، وله ميلٌ إلى تنمية القدرات الكامنة لدى الإنسان.
عندما كنت أغادر مبنى الضيوف صباحًا، كان الباب الخارجي يُغلق أحيانًا، ولكنه في أحيان أخرى كان يُفتح على مصراعيه. والغريب في الأمر أنني كنت دائمًا أشعر قبل مغادرة غرفتي ما إذا كان الباب الخارجي مفتوحًا أم مغلقًا، وهذا الشعور الغامض عند مروري بباب "المنزل"، لاحظتُ أنه مدخلٌ استثنائيٌّ بالنسبة لمبنى تبتي. بدا محكم الإغلاق تمامًا ضد الهواء والماء. علاوةً على ذلك، عندما دخلتُ غرفتي، وجدتُ أنه لا يمكن فتح أيٍّ من الألواح الزجاجية التي يتكون منها السقف، إذ تتم التهوية عبر نظام أنابيب هواء. هل يشير كل هذا إلى أن المدينة تحت الأرض قد بُنيت مع مراعاة إمكانية إغراقها في حالة الطوارئ؟
(لم يكن ما يُعرف بالاستبصار) ثبتت صحته في جميع الحالات، فعندما كنت أصل إلى الباب الخارجي بعد المرور عبر ممرين مختلفين متعامدين، كنت أجد الباب مفتوحًا، أو نصف مفتوح، أو مغلقًا، تمامًا كما شعرت به في غرفتي. كانت الظاهرة غير قابلة للتفسير، لكنها كانت حقيقة، من وجهة نظري.
في اليوم نفسه، مررت بتجربة غريبة أخرى عندما ذهبت إلى مبنى الصرف الصحي لأفرغ محتويات الزجاجة التي وضعتها في غرفتي لاستخدامها عند الحاجة. فوجدت أن السائل قد تحول إلى اللون الأسود. في تلك اللحظة، عزوت الأمر إلى الطعام، وبعد دقائق قليلة نسيته تمامًا.
بدا أن الجو النفسي للمدينة يجعل التفكير النقدي والمنهجي صعباً للغاية. كان يميل إلى إضعاف الذاكرة (كنت في المدينة لأقل من عشر ساعات وشعرت كما لو أن هذه الساعات كانت سنوات عديدة)، ولكنه بدا أنه ينمي الطبيعة الحدسية للإنسان إلى درجة ملحوظة.
عندما عدت إلى غرفتي، سمعتُ صوت خطوات عديدة على السقف الزجاجي. كان بالإمكان سماع دوي الرعد من بعيد، ولأن العواصف الرعدية التبتية عادةً ما تكون عنيفة جدًا في الصيف وغالبًا ما يصاحبها تساقط حبات البرد، فقد وُضع نوع من القماش السميك أو المرتبة الرقيقة على الأسقف الزجاجية لحمايتها من
البرد. صعدت إلى الطابق العلوي لمشاهدة هذه الأحداث ووجدت أن سطح المباني كان يعج بما يقرب من مائة من هؤلاء الخدم الموتى، الذين كان يساعدهم عدد كبير من الأطفال الذين يتحركون آليًا،

والذين كانت نظراتهم الجامدة تذكر المرء بجثة، وربما كانت أكثر بشاعة من التعبير - أو بالأحرى انعدام أي تعبير - في عيون الخدم.
كانت الغرفة مظلمة بسبب المراتب الموضوعة على الأسقف الزجاجية، وبعد أن أشعلت مصباحًا، جلست للدراسة (كانوا قد جهزوا لي خصيصًا صندوقًا يُستخدم كطاولة وكرسي غربيين). بعد نصف ساعة، سُمعت تسع دقات عالية من جرس، ولأنني لم أنهض خلال عشرين ثانية لأغادر الغرفة وأذهب إلى قاعة الطعام، دخل خادم بلا حراك دون أن يطرق الباب وقال:
"سيدي، ضيفنا الكريم، هل يمكنك التفضل بتناول وجبة الغداء الثانية لهذا اليوم؟"
في قاعة الطعام، التقيتُ ناربو، الذي كان قد وصل لتوه من حفله. بدا في غاية الصحة. فقط بدت نظرة عينيه قد تغيرت قليلاً. كانت لا تزال جميلة، لكنها تحمل مسحة خفيفة من البريق الزجاجي لم تُعجبني إطلاقاً. بدا أنه يحتل مكانة رفيعة في التسلسل الهرمي للعلوم الخفية، إذ بدا أن الأعضاء الآخرين يقتربون منه باحترام غير عادي.
أخبرني ناربو أن ماني ريمبوتشي، الجوهرة السامية أو أمير النور، حاكم المدينة المقدسة، من المتوقع أن يعود في اليوم التالي، وأنه من المحتمل جدًا أن أحظى بشرف مقابلته.
المدينة تحت الأرض ااوأضاف أن هناك حالاتٍ ضحّى فيها معارف بعض أعضاء الأخوية المقدسة بكل ثرواتهم وسافروا ألف ميلٍ للقاءٍ معه لم يدم سوى دقيقتين. وإذا ما نجح في ترتيب لقاءٍ مع الجوهرة المُعظمة، فقد أطلب من أمير النور الإذن بحضور الشعائر الدينية. ولا يُسمح بدخول المعبد إلا للأعضاء، أما الضيوف الذين لم يلتزموا بأي شيءٍ بعد، فيحتاجون إلى تصريحٍ خاصٍ بذلك، لا يُمنح إلا من قِبَل أمير النور المُعظم نفسه.
قال ناربو: "ستكون الأيام القليلة القادمة بالغة الأهمية بالنسبة لي. لا يحق لأحد هنا إجباري، وكان عليّ أن أقرر بحرية تامة ما إذا كنت أرغب في الانضمام. لي كامل الحرية في الحضور والذهاب متى شئت، وطالما لم أقسم يمينًا، فلا التزام عليّ تجاه الأخوية المقدسة". ثم همس قائلًا: "يدرك الكثيرون منا هنا القيمة العظيمة التي يمكن أن تمثلها لنا إذا قررت الانضمام إلينا بإرادتك الحرة". بل إنه ألمح إلى ترقي سريع في مراتب التسلسل الهرمي، واجتياز مراسم الانضمام تباعًا، وإمكانية تكليفي بـ"مهمة عظيمة" بمجرد أن أقرر الانضمام.¬
أوضحت أنني لم أنضم قط إلى أي جمعية أو أخوية من أي نوع، وأنني حتى الآن بذلت جهدًا دائمًا للحفاظ على الاستقلال المطلق في كل جانب، وأنني شعرت بتردد كبير في التخلي عن هذا الموقف.¬¬
قال: "أنت من سيُقرر، و
في اللحظة التي تتخذ فيها قرارك، سيُعيّن لك أمير النور المنصب الرفيع الذي ستكون فيه أكثر فائدة.
ظننتُ أنني لطالما حددتُ لنفسي مكانتي، وأنني اكتسبتُ من خلال ذلك معرفةً وخبرةً لا تُقدّر بثمن، لكنني لم أستطع دراسة الأمور في المدينة بنفس الدقة التي كنتُ سأفعلها في جوٍّ محايدٍ تمامًا. شعرتُ وكأن قدرتي على التفكير بعمقٍ وحريةٍ، وعلى تقييم الأمور بهدوء، قد تضررت بمجرد وجودي فيها. ولأنني رجلٌ ذو ما يُسمّيه علماء الباطنية "مزاج الأسد"، مع أنني وديعٌ جدًا عندما أريد ذلك، فقد ثار كل شيءٍ في داخلي. حينها كدتُ ألعن جوّ تلك المدينة.
كان عليّ أن أتذكر مقطعاً من مسرحية فاوست لغوته، حيث يقول الشيطان لنفسه بعد أن يترك ضحية محتملة:
"ازدري قدرتك على التفكير، وهي أعظم قوة للإنسان؛ رحّب بالأشياء الضبابية والسحر وروح الوهم، عندها سأحصل عليك بالتأكيد."

ثم نظرتُ إلى ناربو مجدداً وشعرتُ بالخجل من أنني فكرتُ في ذلك. بدا صادقاً جداً في الأمر. أرادني أن أنضم إلى جماعة تعمل من أجل خير العالم، ومنحني حرية الاختيار. لكنّ الأمور عادت إلى نصابها، وشعرتُ أنني وحشٌ كاملٌ لأنني فكرتُ في ذلك.
دار حديث حيوي في مجموعتنا، على الرغم من أن الجميع بدا حريصاً على عدم رفع صوته.
كان هؤلاء جميعًا يشعرون بشيء من الفخر لحصولهم على شرف العمل من أجل العالم. وكان لديهم تقدير كبير لروحانيتهم. بل إن بعضهم ربط أمير النور بكيانات روحية رفيعة المقام، يُطلق عليها الفلاسفة الهندوس اسم "وكلاء الكارما"، والذين ينظمون تفريغ ردود أفعال الكارما على الأفراد والأمم.
بل بدا أن بعضهم يعتقد أن الحاكم المقدس قادر على التأثير في مصائر العالم من خلال تسريع أو تأخير اندلاع الحروب، وظهور أنواع جديدة من الأوبئة، واختفاء أنواع قديمة من الأمراض، فضلًا عن تأثير آفات أخرى تُصيب البشرية، بما في ذلك الكوارث الطبيعية المختلفة. وبدا أنهم يعتبرون الجوهرة المقدسة بمثابة قاضٍ أعلى يُقيم العدل الإلهي، وشعروا بطبيعة الحال بنشوة عارمة لمجرد التفكير في الوقوف على مقربة من كائن يمتلك كل هذه القوى.¬¬
لم يكن للذكاء البشري سوى مكانة متواضعة لديهم. بدا أنهم يعتقدون أن مهمة الإنسان هي تجاوز المرحلة البشرية، وأن تجاوز الذكاء البشري المحدود القائم على الحقائق والارتقاء إلى مستويات الحدس هو أفضل طريقة ليصبح المرء أكثر "إلهية".
مرة أخرى، تأرجحت مشاعري تجاه المدينة في الاتجاه المعاكس. تذكرت الشيطان وهو يتحدث في مسرحية فاوست لغوته (الأبيات المذكورة أعلاه)، لكن كان يكفي أن أنظر إلى ناربو مرة أخرى ليعود الوضع إلى نصابه. كلما طالت إقامتي في المدينة المقدسة، ازداد شعوري بالحيرة والتردد، وشعرت بشعور حاد للغاية.
من المعاناة الروحية. في بعض الأحيان شعرت وكأن الأرض اختفت من تحت قدمي، وأن كل شيء كان في حالة تغير مستمر، وكأنني كنت أُقذف من قبل تيارات روحية متضاربة.
استمعتُ إلى ناربو وهو يشارك في الحديث. شعرتُ وكأن صوته قد ازداد خشونة وخفوتًا. عندما أدليتُ ببعض الملاحظات العابرة، بدأتُ أُنصتُ إلى صوتي، فوجدتُ، لدهشتي، أنه بدا خفوتًا بشكلٍ غير عادي أيضًا. يا لها من لمسةٍ شخصيةٍ دقيقةٍ تُضفيها شخصية الرجل على صوته! بدا أنه غائب.
استمعت إلى حديث الأشخاص الجالسين في الدائرة المجاورة. كانوا يتحدثون عن التطور.
لم يبدُ أن سكان المدينة يتحدثون كثيراً عن أي مواضيع إنسانية. بدا أن جميعهم يرغبون في تجاوز المرحلة الإنسانية والوصول إلى مرتبة الآلهة.¬
تخيّل أحدهم عظمة التطور، حيث تنتقل الحياة من المرحلة المعدنية مروراً بالنباتات والحيوانات والإنسان والملائكة وصولاً إلى المراحل الملائكية والإلهية، ليصبح كل مخلوق إلهاً تلقائياً. وفي يوم من الأيام، سيصبح إلهياً. إنها مسألة وقت لا أكثر.
بدا المجد، في أعينهم، وكأنه المصير التلقائي والحتمي للإنسان. لم يبدُ أنهم يدركون البديل المروع المتمثل في الفناء، ولا حقيقة
المدينة تحت الأرض ١١٩أن هناك اتجاهاً تنازلياً للتطور الشيطاني كمقابل للاتجاه التصاعدي للتطور الإلهي.
بدا أنهم يعتقدون أن الصراع الروحي الأعظم يدور بين الروح والمادة. وبدا أنهم يتجاهلون تمامًا الحقيقة الجوهرية المتمثلة في وجود نوعين مختلفين من الروحانية، أحدهما صاعد والآخر هابط، وأن الصراع الروحي الحقيقي هو صراع بين هذين النوعين، حيث تُعدّ المادة ساحة المعركة.¬

تألفت وجبة الغداء الثانية من تسعة أطباق مختلفة، قُدّمت تباعًا بسرعة نسبية، بحيث لا تتجاوز مدة الوجبة الثانية (حيث لم يكن يُتناول سوى وجبتين يوميًا) ساعةً تقريبًا. وقُدّم الطعام في أطباق فضية ذات تصميم مميز. كان مذاقه لذيذًا، لكن كان من الصعب تحديد مكوناته بدقة. من الواضح أنه احتوى على بعض اللحم، وهو ما لاحظته فورًا لأني لا أتناول اللحم إلا نادرًا. كان معظم الطعام نوعًا من أنواع اليخنة. تفاوتت الأطباق التسعة في مذاقها، لكن محتويات كل طبق كانت كتلة متجانسة من الطعام.
كانت الكميات المقدمة قليلة. بالكاد تعادل محتويات الأطباق التسعة مجتمعة نصف كمية الطعام التي يتناولها شخص لندني عادي على العشاء. كان الطعام مغذياً ومُشبعاً بشكلٍ غريب. ويبدو أنه تم التخلص من جميع المواد التي قد تسبب انتفاخ البطن بعناية فائقة.¬
دعاني ناربو للانضمام إلى بعض أعضاء الإخوة المقدسين بعد العشاء، لكنني شكرته وذهبت إلى الفراش بعد الساعة الثامنة بقليل. أدركت أن حياة المدينة المقدسة فقط
بلغت ذروتها في وقت متأخر من المساء، حيث ذهب معظم الأعضاء والضيوف إلى الفراش بين الساعة الواحدة والثانية صباحاً.
قضيت ليلة مضطربة للغاية، ربما كانت الأسوأ منذ سنوات. تقلبتُ بعنف، أرتعب من كوابيس مرعبة. أحيانًا، وأنا بين اليقظة والحلم، كنت أشعر وكأن الغرفة مليئة بشياطين ترتدي ثيابًا بيضاء ذات مسحة حمراء خفيفة، تحاول تمزيق قلبي وانتزاع شيء منه بمخالبها المروعة. كان جسدي كله يتلوى من الألم، وكنت أغرق في العرق. وقفت بالقرب مني شخصيتان أو ثلاث من النور، تشبهان الشياطين الأخرى إلى حد ما. بدوا كفتيان في السادسة عشرة من عمرهم تقريبًا، وكانت عيونهم تومض كصفائح من البرق كلما اندفعت الشياطين نحو قلبي، مما كان يدفعها للخلف مرارًا وتكرارًا.¬
ازداد الكابوس حدةً. ارتجف جسدي كله. مررت بمراحل النعاس والنوم العميق والوعي الكامل بسرعة مذهلة. عندما استعدت وعيي تمامًا، ظننت أنني أصبت بمرض معدٍ خطير يسبب ارتفاعًا شديدًا في درجة الحرارة.
بعد ثوانٍ معدودة، عدتُ إلى حالة شبه غيبوبة. تقدم نحوي مئات الملائكة البيض، بملابسهم الزاهية ذات مسحة حمراء خفيفة، وعيونهم الجميلة الكئيبة - جميعهم تقريبًا بنفس الملامح - في تهديدٍ واضح، ومخالبهم البيضاء موجهة نحو قلبي وكأنهم عازمون على انتزاع شيءٍ مخبأٍ فيه. وعندما اقترب هذا الجيش المرعب مرة أخرى، تقدم الصبية الذين يرتدون الأبيض لحمايتي. كانت وجوههم تحمل لمسةً مميزة.
كان لكل فتى تعبير وجه مختلف تمامًا عن الآخر. لمعت عيونهم وانطلقت منها ومضات من البرق موجهة نحو الشياطين المتشحة بأردية بيضاء محمرة جميلة ومتألقة. لكن ومضات البرق كانت أضعف من أن تُصد جيش الشياطين بأكمله. تراجع الفتيان. ولأول مرة، ارتسمت على وجوههم الجميلة ملامح قلق لا توصف.¬
استيقظتُ بكامل وعيي. كان جسدي كله يتلوى. كانت حرارتي مرتفعة. كانت شفتاي جافتين ولساني جافًا. كنتُ أعرف ما يكفي من الطب لأدرك أن دمي يقترب من نقطة التخثر، وأنه إذا ارتفعت الحرارة درجة واحدة أخرى فسأموت. تقلبتُ في الفراش، ضعيفًا جدًا لدرجة أنني لم أستطع الاتصال بأحد، ولم يكن هناك جرس.¬
بعد ثانية من الوعي الكامل، عدت إلى حالتي السابقة.
كان الفتيان ذوو الأردية البيضاء الناصعة لا يزالون يبدون قلقين للغاية. بدت مشاعرهم جلية على وجوههم المعبرة. كانوا يقفون خلفي، لكن خلال كابوسي كنت أرى أمامي وخلفي في آن واحد. أما

الشياطين، فلم تكن على وجوههم أي تعابير مميزة. كانوا جميعًا متشابهين. لم تكن لهم شخصية. بدا وكأنهم ينفذون أوامر شخص آخر بشكل آلي.¬
بدا أن للأولاد شخصيات قوية. وكانت هذه الشخصية بالذات أفضل دفاع لهم ضد جيش كبير من المضللين الروحيين. لكن الوضع اشتدّ عليهم. بضع ثوانٍ أخرى وسيُهزمون، وسيُفتت قلبي على يد الشياطين.¬
ثم نفخ أحد الصبية في بوق فضي، وبسرعة نسر ينقض من السماء، هبطت هيئة مهيبة من السماء كبرق خاطف. كان وجهه مزيجًا غريبًا بين وجه أسد ووجه شاب وسيم. بدا صوته كهدير البحر يتصاعد في لحن واحد عظيم حين كاد يزأر قائلًا: "اتركوا هذا الطفل وشأنه!"، ثم ضرب جحافل الشياطين بسيف بدا وكأنه مصنوع من مادة شمسية، إذ كان يسطع كالشمس في أوج مجدها.
تفرقت الشياطين في جميع الاتجاهات. فرّ بعضها، وتحوّل البعض الآخر فجأة إلى فئران وجرذان وضفادع، واختفوا في الأرض، وساد الهدوء.
استعدت وعيي بالكامل. شعرت أن الحمى قد بلغت ذروتها، وأنني في طريقي للشفاء. ولأول مرة منذ سنوات عديدة، كنت مريضًا حقًا. كنت ضعيفًا جدًا لدرجة أنني لم أستطع النهوض لأخذ شيء أمسح به العرق الذي غمرني. وبعد نصف ساعة فقط، شعرت بالقوة الكافية للنهوض وإشعال المصباح.
لم أرَ أي كوابيس أخرى في تلك الليلة. شعرت فقط بعطش شديد وشربت عدة أكواب من الماء.
في الصباح، بينما كان الجميع في المدينة المقدسة غارقين في النوم، خرجتُ في نزهة. لم أمشِ بهذه البطء منذ دخولي التبت. وعندما كنت على بُعد ميل من مدينة المُريدين، خلعتُ ملابسي واستمتعتُ بحمام شمسٍ ساطع.¬
استقبلتُ فيضان الدفء والحياة بامتنانٍ عظيم. لم أشعر من قبل بمثل هذا التدفق الهائل من القوة في مثل هذه الفترة القصيرة.
حوالي الظهر، عدتُ سيراً على الأقدام. بعد وصولي إلى المنزل، شربتُ بضعة أكواب أخرى من الماء، وعندما دقّ الجرس تسع مرات معلناً وقت الإفطار، كنتُ قد تعافيتُ تماماً تقريباً. عندما حيّيتُ ناربو بابتسامة، لاحظ فقط أنني أبدو أنحف قليلاً. لم يكن لديه أدنى فكرة أنني كنتُ على وشك الموت الليلة الماضية.
وبينما كنا نجلس لتناول الفطور، سُلمت رسالة إلى ناربو على طبق ذهبي. فقام بكسر الختم باحترام. ولم يستطع إخفاء مشاعره وهو يخبرني:
"وصل ماني ريمبوتشي، الجوهرة السامية، إلى هنا بشكل غير متوقع أمس في منتصف الليل. وقد حظيت بمقابلة مع أمير النور في الساعة الثانية من صباح اليوم، وذكرت له أمرك."
"هل كان يعرف شيئاً عني؟"
"أعتقد أنه فعل ذلك. لكن كل ما تفضل به هو أن أعطي تعليمات فورية لجميع المعنيين بأن يتم التعامل معكم بكرم واهتمام استثنائيين، وأن مسألة حضوركم التي اقترحتها عليه باحترام سيتم بحثها لاحقًا."
وأضاف ناربو: "والآن، تلقيتُ قراره للتو. سيتم استقبالكم في القصر غدًا الساعة الثالثة من بعد الظهر، وألاحظ أنه تم تخصيص نصف ساعة كاملة لمقابلتكم، وهو وقت طويل للغاية، كما أؤكد لكم. فحتى المقابلات الطويلة التي يمنحها أمير النور لا تتجاوز سبع دقائق، ولم يُمنح ضيفٌ مثل هذا الشرف العظيم لمدينة المُريدين إلا مرة واحدة في السنوات. آمل أن تُعجبكم المدينة".
"نعم،" علقت بأدب، "يبدو أن كل شيء هنا نظيف للغاية ومنظم بشكل جيد للغاية."
"وماذا عن الأجواء النفسية؟ هل أنت راضٍ عنها؟"

قلت: "إنه أمر غريب للغاية. أشعر وكأنني شخص ميت نسي أن يترك وراءه جسده المادي."
"هل تقصد أنك تشعر وكأنك رجل يزور العالم الآخر بجسده؟"
قلت: "نعم، إنه شعور غريب للغاية ومكان غريب للغاية".
"ستكون ذروة إقامتكم هي لقائكم به"، كما لاحظ ناربو.
انتهى الإفطار، الذي اقتصر على طبق واحد دسم نوعًا ما، وعدتُ إلى غرفتي. استرحتُ أولًا لعدة ساعات لأستعيد ما تبقى من قوتي التي فقدتها بسبب الحمى، ثم بدأتُ بغسل قطعة من الكتان. كنتُ أدرك تمامًا أنني خالفتُ قانونًا آخر من قوانين المدينة بغسل كتاني في الغرفة بدلًا من تسليمه للخادم ليغسله في مبنى الصرف الصحي؛ ولكن بما أنني دائمًا ما أتردد في السماح للآخرين بلمس أغراضي الشخصية، ولا أستخدم خدمات الآخرين إلا عند الضرورة القصوى، فقد أغلقتُ الباب بإحكام وبدأتُ بغسل تلك القطعة بنفسي.
لم أكد أنقع البياضات حتى انكسر الوعاء الخشبي الذي كان موضوعاً في الغرفة للغسيل فجأة إلى عدة قطع صغيرة. لقد كان موقفاً غريباً للغاية. كان الوعاء متيناً إلى حد ما، وقد تعاملت معه بحرص كالمعتاد.¬
وفي وقت لاحق من بعد الظهر، التقيت ببعض أصدقاء ناربو الذين تعرفت عليهم في
مبنى الطعام. ما زلت أشعر ببعض التعب ولم أتحدث كثيراً بنفسي، لكن حديثهم، الذي ناقشوا خلاله مختلف الشؤون الداخلية للمدينة المقدسة، أثبت أنه مثير للاهتمام للغاية.
استنتجتُ، على سبيل المثال، أن الجماع، حتى بين المتزوجين، لا يُستخدم إلا لغرض الإنجاب. فكل طاقة جنسية لا تُستخدم لهذا الغرض يجب تحويلها إلى قوى "عليا" تخدم مصالح الجماعة. حتى الطاقة الجنسية للأعضاء لا تخصهم بل تخص الأمير. يجب استخدامها لإنجاب أطفال يُربّون على نهجه، أو لخلق طاقة روحية تملأ "المخزون" الروحي للمنتسبين. يبدو أن عقلية أشبه بعقلية تلة النمل تسود المدينة المقدسة فيما يتعلق بكل ما يخص الجنس.¬
تذكرت تجربتي الغريبة مع الوعاء الخشبي. ربما كان لدى جماعة الإخوة المقدسة وسائل وأساليب للسيطرة حتى على أكثر أسرار الزواج حميمية بين أعضائها!
هل للحياة معنى، تساءلتُ، إن حرمناها من كل إمكانية للتعبير عن الذات؟ ما هي الحياة بلا حرية، ولا تنوع، ولا شخصية؟ فراغٌ لا معنى له! لا بد أن في بيت الخالق مساكن كثيرة، فكرتُ. لطالما آمنتُ أنه إن أحببتُ الله وأكرمته، وأحببتُ جاري، وأحببتُ نفسي، فإن الله سيسمح لي بفعل كل ما أشاء ما دمتُ أحترم هذه القوانين الثلاثة.¬
انحرف الحديث إلى مواضيع أخرى. عبّر بعض الحاضرين عن استياء روحي من كثرة الخطايا المرتكبة في العالم.
كان يأمل أن تعاقب الجوهرة السامية كل أولئك الذين تسببوا في الكثير من الظلم والمعاناة.
لم أستطع إلا أن أشعر بأن جميع الحاضرين تقريباً كانوا يحملون مسحة من الغرور الروحي. وبدا أن أكثرهم غروراً هم الأكثر خجلاً عندما دار الحديث حول أمير النور والمعلمين المقدسين العظام.
في وقت متأخر من بعد الظهر، عدتُ إلى غرفتي. كان الخادم قد استبدل الإناء المكسور بآخر، ولم ينبس أحد ببنت شفة عن الأمر. حاولتُ التفكير بوضوح، ولكن كلما طالت إقامتي في المدينة المقدسة، ازداد صعوبة التخلص من تأثيرات اللاوعي عند تكوين أفكاري.¬
تناولت العشاء بهدوء شديد، وابتسمت لناربو، ثم عدت إلى غرفتي.
تضاءلت قدرتي على التفكير بوضوح بعد كل وجبة. بل شعرتُ أن جسدي يرفض الطعام الذي تناولته.
أنا رجلٌ سريع البديهة، وبعد الوجبة الرابعة التي تناولتها في المدينة المقدسة، بات من الواضح أن

الطعام لم يكن مناسبًا لي. علاوة على ذلك، في كل مرة كنتُ أتناول فيها شيئًا في قاعة الطعام، كنتُ أشعر بقوة أن مؤثرات لا شعورية تُضعف قدرتي على التفكير.¬
ربما كان كل هذا مجرد صدفة أو انطباع خاطئ. على أي حال، قررت عدم المخاطرة.
ذهبت إلى الفراش حوالي الساعة الثامنة مساءً، ونمت نوماً أفضل بكثير من الليلة السابقة. استيقظت وأنا أشعر
شعرتُ بقوةٍ كبيرة، فقررتُ المشي والجري لمسافة عشرين ميلاً دون توقف إلى أقرب قرية والعودة لشراء الطعام. بدأتُ في الساعة الثالثة صباحاً وعدتُ بعد الثانية عشرة بقليل.
عندما دوت تسع دقات من الجرس ودخل الخادم ليعلن بصوته الخالي من الحياة بشكل مروع: "سيدي ضيفنا. تم تقديم أول وجبة في اليوم"، قلت ببساطة:
"لن أذهب لتناول الإفطار."
كرر جملته بشكل آلي:
"سيدي ضيفنا الكريم. ها قد تم تقديم أول وجبة في اليوم."
ظننت أن هذا الرجل سيكون حارس باب ممتازاً، وتركته يقف هناك ليكرر عبارته النمطية كلما أراد.
ثم ذهب ليحضر مدير المبنى.
أخبرت الأخير أنني لا أنوي تناول الوجبات ولا أرغب في الذهاب إلى المطعم.
"لكن يا سيدي، من المتوقع أن يذهب جميع ضيوفنا إلى المطعم مرتين في اليوم."
قلتُ بأدب ولكن بحزم: "لن أفعل. لقد فهمتُ أن الضيوف هنا أحرار في فعل ما يحلو لهم".
انحنى وانسحب.
وبعد ذلك مباشرة، دخل خادم أرسله ناربو ليسألني إن كنت مريضاً. فأرسلت له تحياتي وأخبرته أنني بخير.
بعد دقيقة، وصلت خادمة أخرى أرسلتها لا-مو-تشون للاستفسار عن صحتي. شكرتها على اهتمامها اللطيف، وأضفت أنني لست مريضة وأنني أحتاج فقط إلى بعض الخصوصية بدلاً من الاهتمام.
بعد قليل، جاء خادم ثالث ليسألني إن كانت صحتي تسمح لي بالالتزام بالموعد المحدد للاجتماع في القصر بعد الظهر. فأجبته بأنني سأحضر بالتأكيد، ولو شعرتُ بأنني لن أستطيع الحضور لكنتُ أبلغتهم بذلك بنفسي.
وبهذا انتهت سلسلة الرسائل. أغلقت الباب وأعددت فطوري بهدوء، خلطت دقيق الشعير بقليل من الزبدة وبعض الفجل المجفف. كنت قد اشتريت ما يكفي من الطعام من القرية لأربعة أيام على الأقل.¬
الغريب في الأمر أن هذه الوجبة التي أعددتها بنفسي لم تؤثر على قدرتي على التفكير، وتساءلت عما إذا كانت هذه حقيقة فعلية أم مجرد انطباع خاطئ ناتج عن الإيحاء الذاتي.
بعد ساعة، ذهبتُ للانضمام إلى ناربو وبعض أصدقائه. لم أكن أريد لهذا الرجل الطيب القلب أن يظن أنه أو أي شخص آخر في المدينة المقدسة قد فعل شيئًا يسيء إليّ، وأن يشك في أن لديّ سببًا غير لائق للابتعاد عن الطعام.
وصلت إلى القصر قبل الساعة الثالثة بعشر دقائق لحضور المقابلة.
في تلك اللحظة، ظننتُ حقًا أن أمير النور كان قائدًا روحيًا صادقًا ورئيسًا لجماعة سرية هدفها الأسمى تكريم الخالق ومساعدة العالم. الشيء الوحيد الذي لم يُعجبني فيه هو هالة الجلال الاستثنائية التي كان يُحيط نفسه بها. لكنني فكرتُ لاحقًا أنها ربما كانت مجرد حل وسط. ربما شعر أنه يستطيع إنجاز عمله على نحو أفضل لو غطى نفسه بهالة من الجلال.

المدينة تحت الأرض129 مثل هذا المظهر. ولأنني أميل دائمًا إلى البحث عن الجوهر لا الظل، لم أعتبر هذا البهاء دليلًا على عدم الإخلاص. فكرتُ أن معظم الناس يفعلون مثل هذه الأشياء على نطاق أصغر. عندما قدمتُ أول بث لي عام 1933، كنتُ أكره الياقات بشدة، إذ كنتُ أعتبرها غير عملية وسخيفة، ومع ذلك عندما ذهبتُ لمقابلة مسؤول البرامج الحوارية في إحدى الدول الأوروبية، ارتديتُ ياقة، لأنني أدركتُ أنني إذا ظهرتُ في مبنى الإذاعة بدون ياقة، فلن أنجح أبدًا في الحصول على مقابلة مع مسؤول البرامج الحوارية، وأنه من الحماقة التضحية بفرصة تقديم بث إذاعي لمجرد عدم ارتداء ياقة. فكرتُ أن أمير النور كان يفعل الشيء نفسه على نطاق أوسع، وكنتُ على استعداد لمسامحته.
نزلتُ درج القصر. كان المدخل محروسًا. أربعة خدمٍ جامدين يقفون هناك كالتماثيل الحجرية. اقترب خادمٌ خامس، انحنى، وأشعل شعلة. فتح خدمٌ آخرون الباب المزدوج الثقيل، وبعد توقفٍ دام دقيقتين تقريبًا، رافقني سبعة خدمٍ على الأقل إلى الطابق السفلي. نزلنا ونزلنا. درجٌ تلو الآخر. لم أكن أتصور قط مدى ضخامة مثل هذا المبنى تحت الأرض. كان خلفنا ما لا يقل عن اثنتي عشرة درجًا عندما وصلنا إلى أسفل الدرج الواقع على عمق ربما مئة قدم تحت المدخل الرئيسي للقصر. فُتح بابٌ ثقيلٌ آخر، فوجدتُ نفسي في قاعةٍ صغيرةٍ مضاءةٍ بالمشاعل. كانت الساعة الثالثة تمامًا.¬
تم تحديد توقيت خطواتنا بعناية فائقة بحيث أصل إلى الطابق السفلي في تمام الساعة الثالثة، وهو الموعد المحدد للجمهور.
اقترب خادم آخر يحمل بخاخًا ذهبيًا، وسكب عليّ كمية وفيرة من العطر. لم أكن أتوقع أبدًا أن أُعطر بهذه الطريقة قبل دخولي إلى أروقة القصر الداخلية. ولكن ربما يكون الأمير قد وضع هذه القاعدة العامة الحكيمة لمصلحته الخاصة، تحسبًا لأن يُدعى شخصٌ يحمل أفكارًا تبتية أصيلة عن النظافة والتعقيم كضيف من قِبل أحد أعضاء الأخوية المقدسة، ويحظى بمقابلة.
بينما كنتُ أُعقّم بهذه الطريقة، نظرتُ حولي. تسعة ممرات تحت الأرض صغيرة تتفرع من القاعة الصغيرة في جميع الاتجاهات. ربما كانت تربط القصر بأجزاء أخرى من المدينة الجوفية. خطرت لي فكرة أن أحد هذه الممرات على الأقل ربما كان متصلاً بمكان يبعد عدة أميال، لتمكين الأمير أو أي من مساعديه من دخول المدينة المقدسة والخروج منها سرًا. وجود شبكة من أنابيب التهوية يُبرر افتراض أن اثنين على الأقل من هذه الممرات يبلغ طولهما عدة أميال. كل ممر كان يحرسها أربعة خدم على الأقل، وربما كان بعضهم يُستخدم لإرسال الرسائل. أينما نظر الزائر، وقعت عيناه على وجوه هؤلاء الخدم الجامدة، التي تُذكّر المرء بجثث كثيرة خرجت لتوها من توابيتها.
فُتح الباب الثقيل الموجود على الجانب المقابل من القاعة الصغيرة على مصراعيه.
دخلتُ إلى قاعة المدخل الكبيرة المؤدية إلى الجزء الداخلي
المدينة تحت الأرض١٣١ من القصر. من الآن فصاعدًا، لن أقابل إلا أعضاء الإخوان. وكما أخبرني ناربو لاحقًا، لا يُسمح لأي خادم بدخول القصر الداخلي.
كانت القاعة الكبيرة تبلغ مساحتها حوالي ثلاثين ياردة في أربعين ياردة. وكانت تُضاء بمئات المشاعل المثبتة في قواعد ذهبية في الجدران وحول الأعمدة، وتُغذى عبر أنابيب بسائل يحترق بلهب عديم الدخان. ومثل العديد من القاعات الأخرى في المدينة المقدسة، كانت متصلة بأنابيب تهوية بغرفة كبيرة في مبنى الصرف الصحي، حيث كان عشرات الخدم يُشغلون المراوح من حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا حتى الثالثة فجر اليوم التالي.
استقبلني سبعة أعضاء من جماعة الإخوة المقدسة يرتدون أثواباً رائعة.¬

رداء أسود سميك من الحرير الخالص مطرز بعدد كبير من الزخارف. أُحضرت، ومعها سبع وسائد حريرية. وببطء واحتفال، وُضعت الوسائد السبع فوق بعضها البعض، ثم داس عليها أحد الإخوة ذوي الملابس الفاخرة، وفرد الرداء، واستعد لتغطيتي به.
في تلك اللحظة، ربما تلقى منظمو الحفل أكبر صدمة في حياتهم.¬
رفضت رفضاً قاطعاً ارتداء أي نوع من أنواع الملابس الاحتفالية.
قلتُ بأدبٍ وحزم: "إذا كان سيدك عظيماً كما تدّعي، فلا بدّ أنه يعلم بنفسه إن كنتُ عظيماً أم صغيراً. لا أريد أيّ لباسٍ خاصّ لتحسين مظهري عند المثول أمامه".
لقد أصيبوا بالذهول. كما أخبرني ناربو في
في ذلك المساء، كنت قد خرقتُ أيضاً قاعدة الصمت التام التي يجب أن تسود القاعة الكبيرة تحت الأرض وفي النصف الأيسر من القصر الذي يستخدمه الأمير. لا يُسمح لأحدٍ أن ينطق بكلمة هناك إلا رداً على سؤال أو استجابةً لأمرٍ صادرٍ عن أمير النور.
تم استدعاء عدد من منظمي المراسم الآخرين ذوي الرتب الأعلى على عجل. وجدت نفسي محاطاً بحشد متزايد من الشخصيات المرموقة الذين حاولوا بدورهم إقناعي، بهمساتٍ مهيبة، بضرورة ارتداء الرداء الحريري الأسود قبل الدخول في حضرة الحاكم الجليل.
كل هذه الضجة حول مثل هذه الإجراءات الرسمية! كان الأمر مضحكاً حقاً.
بعد حوالي خمس دقائق من الهمس المتواصل، اعتقدت أنه من غير المجدي إضاعة المزيد من وقتهم، وقلت باحترام عميق:
أعتذر عن مخالفة قواعدكم، لكنني ظننت أنني جئت هنا للقاء غير رسمي وليس لأمر رسمي هام. هلّا تفضلتم بنقل تحياتي إلى ماني ريمبوتشي؟
استدرت نحو المخرج وبدأت بالخروج. اندفع حشد مقدمي الحفل خلفي.
همسوا بصوتٍ متردد: "لا يمكنك الذهاب الآن. لقد بدأ الجمهور بالفعل لحظة دخولك الجزء الداخلي من القصر. جمهورٌ مُقاطع! لم أسمع بمثل هذا الأمر من قبل".¬
قلتُ ببرود: "ألاحظ أن حفل الاستقبال برمته مُعدّ ليكون مجرد مراسم شكلية. لم أكن..."
المدينة تحت الأرض اااأتيتُ إلى المدينة لأجل شيء ما، ولكن لأساعد وأتعاون بإرادتي الحرة مع المرشدين الروحيين المخلصين. ليس لدي وقتٌ للطقوس. أقترح أن يرتدي أحدكم ذلك الرداء الحريري الأسود ويؤدي الطقوس نيابةً عني. لن أرتديه. هذا قراري النهائي.
انحنيت والتفت نحو المخرج. لم يكن لديهم القدرة على منعي.
في تلك اللحظة، نزل مسؤول في المحكمة العليا، يرتدي ثوباً من الحرير الأبيض النقي، مسرعاً من الدرج المؤدي إلى الأجزاء العلوية من القصر، وصاح حرفياً:¬
"من فضلك توقف 1 الجوهرة السامية سترحب بك كما أنت."
أخبرني ناربو في المساء أنه لأول مرة في تاريخ القصر، صرخ أحدهم في الجزء الداخلي منه.
عدت.
سار سبعة من رؤساء المراسم في المقدمة حاملين سبعة مشاعل، بينما كان الإخوة ذوو الرتب الأعلى، الذين تم استدعاؤهم للإنقاذ لاحقاً بسبب هذا الحدث غير العادي، في المؤخرة.
في الطابق العلوي، استقبلني مسؤول رفيع آخر يرتدي رداءً حريريًا أبيض بكل احترام. دخلنا قاعةً مزخرفةً ببذخ تقع فوق القاعة السابقة. اقترب مني مسؤولون آخرون من البلاط، ولم يصدقوا أعينهم حين رأوا

شخصًا يصعد لمقابلة أحدٍ مرتديًا ملابس عادية. تقدموا ليخلعوا حذائي ويستبدلوه بزوج من الأحذية المصنوعة من اللباد والمزينة بحلي فضية فاخرة.
أخبرتهم بكل أدب أنني غير مستعد للتخلي عن حذائي، ولكن إذا كانوا يعتقدون أنهم
لم تكن نظيفة بما فيه الكفاية، ولم يكن لدي أي مانع من تنظيفها.
لأول مرة منذ دخولي القصر رأيت ابتسامة خافتة.
كان هناك درجان في هذه القاعة الثانية، الدرج الأيمن، كما أخبرني ناربو لاحقًا، يؤدي إلى الشقق الخاصة بمسؤولي البلاط، والدرج الأيسر إلى قاعات الاحتفالات حيث كان من المقرر عقد المقابلة. وامتد من أحد جدران القاعة ممر طويل جدًا وعريض يمتد لمئات الأمتار، ولأول مرة خطرت لي فكرة أن المدينة تحت الأرض قد تكون أكبر بكثير مما تبدو عليه، وأن الأعضاء الذين اجتازوا أعلى مراحل الانضمام فقط هم من يملكون حق الوصول إلى أكثر أجزائها سرية.
بعد صعودنا الدرج، وصلنا إلى قاعةٍ أكثر روعةً في زخرفتها، هذه المرة مضاءةٌ بضوء النهار الخافت المتسلل من السقف. تسعةٌ من رؤساء المراسم، يتقدمهم قائد البلاط، جميعهم يرتدون أثوابًا بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية فاخرة، اصطحبوني إلى الطابق العلوي مرةً أخرى في موكبٍ مهيب. أدركتُ حينها أنني كنتُ على مقربةٍ من قاعة الاستقبال، إذ لا بد أننا وصلنا إلى أعلى جزءٍ من القصر، حيث كان ضوء النهار الساطع يغمر المكان من خلال السقف.¬
استقبلني اثنان من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، ربما كانا يعملان بصفة سكرتيرين خاصين للأمير. انحنى المسؤول الرفيع ورؤساء المراسم التسعة، الذين كانوا يرتدون الحرير الأبيض، وانصرفوا. بدأتُ أتحدث إلى السكرتيرات بصوتٍ خافت، لكنهن لم يُجبنني، ووضعن أصابعهن أمام أفواههن.
بكل تأكيد، لم أجد أي صلة بين كل هذه الاحتفالات، التي ربما كان الهدف منها إثارة إعجاب الناس وتوقعاتهم. بل اعتبرتها مملة للغاية، وتخيلتها، بازدراء، أشبه بسيرك.¬
مرّ أحدهم حاملاً كرسياً مريحاً من نوع أوكسيدنتال. بدا أنهم رتبوا قاعة الجمهور خصيصاً لي.¬
وبعد بضع دقائق - ربما كانت الساعة الثالثة وعشرين دقيقة - أعلن أحد السكرتيرين بصوت هامس: "هل يمكنك الحضور إلى حضرة الحاكم؟"
غادروا الغرفة الأمامية، التي كانت مليئة بالمزهريات باهظة الثمن والسجاد الفاخر، ودخلوا غرفة أصغر قليلاً حيث كان يجلس الجوهرة السامية أو أمير النور في إحدى الزوايا.¬
نهض عندما دخلت، واستقبلني في منتصف الطريق تقريبًا، ومدّ لي يده اليسرى بحفاوة بالغة. قال مبتسمًا، متحدثًا الإنجليزية بطلاقة: "اليد اليسرى أقرب إلى القلب". أخبرني ناربو لاحقًا أن أمير النور يتحدث ويكتب ست لغات بطلاقة، وهي: التبتية، والإنجليزية، والفرنسية، والصينية، والهندوستانية، والسنسكريتية.¬
جلست على الكرسي الغربي المريح الذي تم إحضاره خصيصاً للجمهور، وجعلت نفسي أشعر بالراحة كما لو كنت في صالون رجل متواضع الحال يدعوني بشكل عفوي لزيارة منزله.
قال الأمير: "أنت رجل ذو قدرات عظيمة، وسيتعين عليك إنجاز مهمة عظيمة في هذه الحياة. ستكون الأيام القليلة القادمة ذات أهمية بالغة بالنسبة لك. ستُكدس أمامك تجارب ودلالات سلسلة كاملة من الحيوات في غضون ساعات. أنت مدعوٌّ
أمامك الآن ربما أعظم قرار طُلب منك اتخاذه في حياتك، ليس فقط في هذه الحياة، بل في مئات الحيوات السابقة. لا أحد يستطيع إجبارك على ذلك. أنت وحدك من يجب أن تتخذ قرارك بحرية تامة.

كان يتحدث كملك أو إمبراطور. بدت كل كلمة وكأنها تحمل دلالة، وبدا أنه يدرك تمامًا القوة الهائلة التي يمتلكها. إذا كان ناربو محقًا، فقد كنتُ في حضرة إحدى أعظم القوى على وجه الأرض.
كان صوته رقيقاً وقوياً وجميلاً، لكنه كان يحمل نبرة معدنية بعض الشيء. وكان عميقاً جداً أيضاً.
كان طويل القامة وله لحية بيضاء طويلة. بدا مزيجاً بين فيثاغورس بلمسة يهودية خفيفة ورجل تبتي عصري أنيق ينتمي إلى طبقة النبلاء في البلاد.
عندما التقت أعيننا شعرت بشعور غريب وكأن شيئًا ما بداخلي يهرب منه بشوق كبير، لكنه كان مجرد رد فعل لا يمكن تفسيره، وبما أنني مررت بالعديد من التجارب الروحية المتضاربة والمتناقضة منذ أن جئت إلى المدينة المقدسة، لم أعر الأمر أي اهتمام بعد ذلك.¬
تحدثنا عن مجالات نشاطنا المختلفة، رحلاتي الاستكشافية ومسرحياتي.
قال: "لديك إرادة حديدية، لكن هذا لا يكفي. أحيانًا تُنجز الأمور بفضل طاقتك الهائلة، وهذا لا يكفي. يجب أن تكتسب القدرة على جعل محيطك يُطيعك". ثم ذكر كلمتين سنسكريتيتين لتوضيح الفرق بين الرغبة في شيء ما وأمر شيء ما ليأتي إليك.
بدا وكأنه يحثني على محاولة وضع نفسي على أما المستوى الثاني مع الخالق، من ناحية أخرى، فقد كان يعلم أن أعظم ما أملكه في الحياة هو القدرة على العيش بشكل كامل، وأن أكون مخلوقًا - مخلوقًا قويًا بطريقتي الخاصة - ولكني مع ذلك ابن الخالق، ولم أحاول أبدًا أن أكون مثل الخالق من خلال "الأمر بأن تأتي الأشياء في طريقي".
ثم تحدثنا عن الأخطاء الروحية. قال إنها "لا تهم". بدا وكأنه يلمح إلى أنه إذا تعثر الإنسان وسقط، فإنه سينهض مرة أخرى.
خطر لي أن هناك خطأً فادحًا واحدًا على الأقل في العالم الروحي. إذا أضاع الإنسان روحه، فلن يستطيع إصلاح ذلك، ولن يتمكن من استعادتها. هناك أخطاء قاتلة إلى الأبد.
فكرتُ: إذا قفز رجل من ناطحة سحاب، فقد يُدمر في غضون ثوانٍ قليلة كل ما بناه طوال حياته.
لم يعجبني قوله بأن "الخطأ لا يهم، إذ يمكن إصلاحه". كنت أعلم أن هناك أخطاءً يستحيل إصلاحها.
شعرتُ وكأن هذا الكلام يُقال ليُعجّل بقراري، وعلى الفور بدأتُ أشعر برغبة جامحة في اتخاذ القرار.
انتقل الحديث من الأخطاء الروحية إلى مسألة "السلطة".
"بامكانك أن تصبح ذا قوة مطلقة"، قالها بنبرة ذات مغزى.
سألت: "بأي ثمن؟"
أجاب: "عليك أن تكتشف ذلك بنفسك".
تحدثنا عن أخوته. أوضح لنا مدى تجرده من المشاعر. كان الفرد يختفي غالبًا من أمام عينيه، فلا يرى إلا ما يراه.
مبادئ فعّالة. وكانت مبادئ عظيمة بالفعل. لم يدرك الضيوف ذلك دائمًا.
"أحياناً يأتي ضيوف إلى هنا ضحوا بكل شيء من أجل ذلك، ويتحملون الجوع لأسابيع حتى يتمكنوا من المجيء إلى هنا. دعهم يجوعون. من الجيد لهم أن يجوعوا"، قال ذلك بنبرة باردة وحادة.
نظرت إليه وهو جالس هناك مرتدياً رداءه الفاخر. بدا وكأنه يستشعر ما يدور بداخلي.
وأضاف: "أتمنى ألا تُسيء فهمي"، ثم غيّر الموضوع. وتطرّق حديثنا تدريجيًا إلى مشاكل أعمق، كالتناقض بين الشرق والغرب، والحروب الدامية، والكوارث الطبيعية، وكيف أن لكل هذه الأمور أسبابًا أعمق. بل إنه تطرّق إلى مشكلة السياسة، والديكتاتوريات، وحكم الجماهير، وبدا أنه يعارض الرياضة.¬¬

وبما أنني لا أتطرق أبداً في كتبي ومحاضراتي إلى أي مشكلة مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بالسياسة، فسأمتنع عن ذكر التفاصيل.
اعتقدت أنني قد تجاوزت بالفعل الوقت المسموح به للجمهور، وكنت أنوي إنهاء الأمر بإبداء بعض الملاحظات المهذبة حول رفضي ارتداء الرداء الاحتفالي المصنوع من الحرير الأسود.
ثم ابتسم لأول مرة.
"أنت أول شخص يدخل هذا الجزء من القصر مرتدياً ملابس كهذه. آمل أن تدرك الآن مدى ضآلة القيمة التي نوليها حقاً لأمور البذخ والاحتفالات."
لقد ذكرت مسرحية كوريولانوس لشكسبير، ووجدت أنه يعرفها جيداً، حيث أنه عبر عن رأيه بطريقة مفصلة للغاية وقدم أيضاً عدداً كبيراً من التفاصيل التي تدل على أنه لا بد أنه قرأ المسرحية عدة مرات.
تمنيت بصدق أن أصدقه، لكنني لم أستطع.
فجأةً شعرتُ أن الكثير من الناس ينتظرون في الخارج، فقد حان وقتهم. كنتُ متأكدًا تمامًا من أنهم ينتظرون. وكما سبق شرحه، فإن أجواء المدينة تُنمّي هذه القدرات بطريقة غريبة.
نهضتُ ورغبتُ في المغادرة، لكنه طلب مني البقاء، قائلاً إنه يُقدّر حديثنا كثيراً. شكرته وجلستُ مجدداً. ذكرتُ خططي المستقبلية بشكل عرضي، وكنتُ متشوقاً لمعرفة ما سيفعله في ظل هذه الظروف أو تلك.
قال: "أنا لا أقدم النصائح لأحد أبداً".
ثم تطرق إلى موضوع الطقوس الدينية، وبعد أن تحدثنا لفترة من الوقت عن هذه الأمور، طلبت منه الإذن لحضور القداس الإلهي في المعبد بشرط أن أكون حاضراً كزائر، وعلى أساس أن حضوري لا يعني أي التزام تجاه جماعة الإخوان الباطنية.
وقد منح الإذن، مضيفاً أنه لأول مرة في تاريخ المعبد سيُسمح لي بحضور قداس دون ارتداء رداء من الحرير الأسود. علاوة على ذلك، وبموجب معاملة خاصة، تم السماح لي أيضاً بزيارة غرفة المكتبة في المباني السكنية حيث لا يُسمح عملياً بدخول الضيوف الذين لم يصبحوا أعضاء في الأخوية.
شكرته وانصرفت، ثم حيّيته باحترام.
من قبل جميع مسؤولي المحكمة ومنظمي الحفل عندما مررت خارج العديد من الأشخاص الذين تأخرت في استقبالهم بسبب طول مدة الحضور المفرط.
غادرت القصر وعدت سيراً على الأقدام إلى دار الضيافة. أرسلت خادماً إلى ناربو، وأخبرته أنني حظيت بلقاء طويل ومثير للاهتمام مع الحاكم، وأنني لن أحضر العشاء بل سأحضر القداس الإلهي في نفس المساء، حيث حصلت على إذن بذلك من الجوهرة السامية.¬
عندما جاء الخادم ليُعلن أن العشاء جاهز، تركته يُكرر صيغته الآلية عدة مرات، ثم أغلقت الباب بإحكام وأعددت طعامي. بعد العشاء، نمتُ لعدة ساعات، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً، انضممتُ إلى ناربو. توجهنا معًا إلى مبنى المعبد لحضور الشعائر اليومية.
أخبرته باختصار عن الجمهور، لكن يبدو أنه كان على علم بذلك بالفعل.
"آمل أن تكونوا قد اقتنعتم الآن بأن الجوهرة السامية هي قائد روحي قوي"، هكذا علّق.
"نعم"، أجبت، متجنباً الرأي القائل بأنه لا يزال يتعين عليّ معرفة أهم حقيقة عنه، وهي ما إذا كان يخدم قضية النور أم قضية الظلام.
طوال المساء كنتُ أعاني من شكوك عميقة بشأن الطبيعة الحقيقية لجماعة النور بأكملها.
كان الليل مظلماً عندما مررنا بالجدار الدائري المحيط بالعمود في وسط المدينة المقدسة.

"لا بد أن هذا البئر عميق جداً"، لاحظتُ. "كيف عرفتَ أنه بئر؟" سأل ناربو. "لقد استكشفته قليلاً"، أجبتُ.
بدا عليه الاستغراب الشديد.
"إنها عميقة للغاية،" لاحظ، "لكن لا أحد يعلم إلى أين تؤدي سوى أمير النور وعدد قليل من كبار المُريدين الذين يُطلق عليهم اسم سادة الرحمة. أي شخص يُريد أن يعرف إلى أين تؤدي وما هو الغرض منها سيموت... هناك مثل هذه الأسرار."
"من سيقتله؟"
"لا أحد. سيموت تلقائياً في الليلة التالية."
وصلنا إلى مبنى المعبد ونزلنا الدرج. كانت القاعة الصغيرة أمام الباب الذهبي المزدوج المؤدي إلى المعبد مضاءة بشكل خافت بمشاعل يحملها الخدم، الذين لم يُسمح لأي منهم بدخول معبد لا كانغ المقدس.
كان هناك العديد من الخدم يساعدون الأعضاء على خلع أحذيتهم. ثم جثوا أمامهم وغسلوا أقدامهم.
كان لا بد من حضور الصلوات حفاة. وقام خدم آخرون برش أقدام الكهنة العارية بكمية وفيرة من العطر.
لم أستطع كبح ابتسامتي.
قام مُنظِّم المراسم، مرتدياً ثوباً من الحرير الأسود، بتوزيع أردية الاحتفال على رواد المعبد. كانت هذه الأردية أبسط قليلاً من تلك التي رأيتها في القصر، لكنها أصغر حجماً ومطرزة بالفضة. عندما رأيت هؤلاء الناس يرتدون هذه الأردية متجهين إلى القداس، تذكرت قداساً جنائزياً يُقام في كنيسة كاثوليكية.¬
أبلغ مسؤولو المحكمة رئيس المحكمة بـ
الاحتفالات التي سُمح لي بدخولها دون ارتداء رداء من الحرير الأسود ودون خلع حذائي.
كان منح الحاكم لهذا التصريح أمراً استثنائياً حقاً. لاحقاً، خلال المراسم، لا بد أنني بدوت كنقطة مضيئة في الظلام. كان الجميع يرتدون الحرير الأسود. كنتُ الشخص الوحيد الحاضر الذي يرتدي ثوباً قطنياً رخيصاً فاتح اللون بشكل ملحوظ.
بعد أن قام خادم يحمل بخاخ عطر بتعطيري جيداً، مررت بالباب الخارجي للمعبد. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا بضع دقائق.
اقترب مني رجلٌ آخر، يحمل عصًا ضخمة مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة، يعلوها جمجمة بشرية، وهمس لي بأنه ممنوع منعًا باتًا التحدث أو حتى الهمس داخل المعبد، وأن مجرد النظر إلى المشاركين الآخرين في الطقوس يُعدّ جريمة خطيرة. وأعرب عن أمله في أن ألتزم بهذه القواعد. وأضاف، بأقصى درجات اللطف، أن البديل هو طلبٌ مهذبٌ ومتواضعٌ بمغادرة المعبد فورًا. انحنى لي بانحناءةٍ تكاد تكون مذلولة، فخرجتُ من الباب الداخلي للمعبد.¬
أود أن أشير في هذا السياق إلى أن الانحناءات في المدينة المقدسة تختلف تماماً عن التحيات التبتية المعتادة. فنادراً ما يرفع الناس في المدينة أيديهم المطوية إلى جباههم أو أفواههم أو قلوبهم، وهو أمر شائع في أماكن أخرى.¬
المدينة تحت الأرض143 أين؛ كما أن السجود التبتي الذي يسمى عادة كياغتشاغ لا يستخدم إلا أثناء الخدمة الإلهية في المدينة المقدسة.¬
كان "بيت الله" يبلغ طوله حوالي خمسة وعشرين ياردة وعرضه أربعين ياردة. وكانت هناك تسعة أبواب كبيرة في الجدران الثلاثة المقابلة للمدخل وعلى يمينه ويساره. وكانت هذه الأبواب مفتوحة على مصراعيها، ويمكن للمرء أن يرى أنها تؤدي إلى تسعة أنفاق تحت الأرض يبلغ طولها مئات الياردات على الأقل، وتمتد بانحدار طفيف إلى باطن الأرض إلى ما لا نهاية.¬

كان هناك مذبحٌ مُضاءٌ بنورٍ دائمٍ في وسط المعبد، وتتفرع منه أربع طاولاتٍ طويلةٍ تُشكّل صليبًا كبيرًا. وكان الكهنة يجلسون على هذه الطاولات. أردتُ الجلوس بالقرب من ناربو، لكنّ الأماكن كانت مُحدّدةً من قِبل مُنظّمي المراسم، ولم يكن لأيّ مُشاركٍ في القداس الحقّ في اختيار مكانه بنفسه. كان هناك نحو مئتي شخصٍ حاضرين بالفعل عندما جلستُ في المقعد المُخصّص لي.
كانت جدران المعبد مزينة بنقوش باللغة التبتية، وقضيت بضع دقائق في قراءتها. فهمت بعضها، لكنني لم أفهم البعض الآخر.
جاء في إحداها: "سلّم روحك للسيد وسيريك النور". فكرت في رجل يشتري قطة في كيس.
وجاء في عبارة أخرى: "لا تثق بعقلك. الفهم العميق يتجاوز الذكاء".
هذا الأمر زاد من رغبتي في الوثوق بعقلي.
وجاء في نقش آخر: "طوبى لكم أيها المتألمون. تعالوا إليّ وسأريحكم".
وآخر يقول: "كل شيء غير حقيقي، فقط أنا
"كلماتي الخاصة حقيقية." فكرتُ باستهزاء أن هذا النقش لم يكن متواضعاً على الإطلاق.
بدأ القداس بقرع الأجراس، وكان صدى هذا القرع، الذي دوّى بعيدًا في الأنفاق تحت الأرض، هائلاً. ثم صعد أحد كبار المنتسبين، مرتدياً رداءً حريرياً أبيض فاخراً، بوقار من الجدار الشمالي للمعبد نحو المذبح المركزي. وكان يرافقه عدد من المنتسبين الأقل شأناً. وأدى طقوساً وحركات غريبة، وكان مساعدوه يلمسون الأرض برؤوسهم خلفه معظم الوقت. وكان الحضور يتناوبون على الوقوف كفرقة عسكرية مدربة، ثم يجلسون أو يلمسون الأرض برؤوسهم. وتناوبت هذه الأوضاع الثلاثة بسرعة.¬¬¬
كانت الأجراس تُقرع بين الحين والآخر، ويُحرق البخور مرارًا وتكرارًا. وفي إحدى المرات، طاف الكاهن حول المذبح سبع مرات، وهو يُحرك مبخرة البخور طوال الوقت. وقُبيل نهاية القداس، قام الكاهن بتكريس أقراص صغيرة مصنوعة من الأرز، ثم صعد أعضاء الجماعة، واحدًا تلو الآخر، إلى المذبح، وأخذ كل منهم قرصًا مُكرسًا من طبق ذهبي، وابتلعه بتفانٍ شديد، ثم عادوا إلى مقاعدهم فورًا.
مع اقتراب نهاية القداس، خرج أحد المنتسبين حاملاً إناءً فضياً من أحد الأنفاق وسلمه للكاهن، الذي وضعه على المذبح، وكرّسه بوفرة من القداس، ثم سكب محتوياته في مئات المزهريات الصغيرة، المصنوعة على ما يبدو من المدينة تحت الأرض145 من الذهب الخالص، وقدمها له المساعدون على صوانٍ.
حدّقتُ قليلاً لأعرف شيئاً عن طبيعة السائل أثناء سكبه. كان لونه أحمر قانياً. أخبرني ناربو لاحقاً أنه كان دماً بالفعل! عندما سألته عن نوع الدم، قال إنه ممنوع من الإجابة.
ثم بدأ الموكب مرة أخرى، حيث صعد الكهنة واحداً تلو الآخر إلى المذبح وأفرغوا محتويات إناء واحد لكل منهم بتفانٍ كبير.
وبهذا اختتمت الخدمة. ودوى صوت أجراس تحت الأرض بقوة هائلة، وانسحب الكاهن ومساعدوه الذين حملوا ذيله بطريقة احتفالية ودخلوا النفق المركزي في الجدار الشمالي للمعبد، بعد أن رشوا الحضور بكمية وفيرة من الماء المقدس.¬
خرج الإخوة في موكب مهيب، ولم يجرؤ أي منهم على النظر إلى أحد. عند خروجي، لاحظتُ أن الجزء السفلي من جميع جدران المعبد عبارة عن سلسلة متصلة من علب زجاجية ذات حواف فضية، مليئة بالكامل بعظام بشرية. أظهر حساب سريع أن المعبد يحتوي على ما يعادل كذا وكذا من حمولات الشاحنات من العظام البشرية.
وغني عن القول، لم أصعد إلى المذبح، واكتفيت بالوقوف والجلوس من وقت لآخر من باب المجاملة.

بعد حديث قصير مع ناربو، ذهبت إلى الفراش. كانت الساعة حوالي منتصف الليل.
نمت نوماً عميقاً، وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً انطلقت في نزهة طويلة في الحي. أخذت معي بعض الطعام، بنية أن¬
عدتُ بعد الظهر؛ شعرتُ أنني في حالة جيدة تماماً، وبحلول الظهر كنت على بعد سبعة أميال ونصف على الأقل من المدينة عندما سمعت دوي الرعد في المسافة.
لقد تركت خيمتي في المدينة المقدسة، ولأول مرة خلال رحلاتي في التبت لم يكن لدي ما يحميني من عاصفة رعدية تبتية، والتي عادة ما تكون عنيفة للغاية.
بعد أن قطعت بضعة أميال عائدًا نحو المدينة، فاجأتني العاصفة الرعدية. لم يكن هناك أي شيء يمكن استخدامه للاحتماء، لذا لم يكن أمامي سوى الاستلقاء على الأرض وانتظار انقضاء العاصفة.
كانت العاصفة الرعدية عنيفة بشكل غير معتاد. توالت ومضات البرق بسرعة، وبعد حوالي خمس دقائق، كنتُ غارقًا في الماء حتى النخاع. ولأنني أكره المشي بملابس مبللة، خلعتها، وجمعت كل ما كان معي في حزمة، واستمتعتُ كثيرًا بهذا الاستحمام المفاجئ. لحسن الحظ، لم يكن هناك برد، وبعد حوالي نصف ساعة، انقشعت العاصفة الرعدية وظهرت الشمس. عصرتُ ملابسي ونشرتها. كانت الساعة حوالي الواحدة ظهرًا. كانت درجة الحرارة تحت الشمس حوالي خمسين درجة مئوية، وفي هذه الحرارة الشديدة، جفت الملابس بسرعة ملحوظة. بحلول الساعة الثالثة تقريبًا، كانت قد جفت تمامًا. ارتديتها، وبعد تناول وجبة من التسامبا المبللة، عدتُ سيرًا على الأقدام إلى المدينة.¬
قد يعلم بعض قرائي المطلعين على العلوم الخفية أنه لا يوجد مطهر أفضل من الماء، وخاصة الماء المتدفق.¬

*** دقيق الشعير.**

المدينة تحت الأرض 147ينزل الماء من السماء، فيزيل كل التيارات المغناطيسية التي ترسلها العوامل الخارجية إلى الجسم والملابس. يمتص الماء التيارات المغناطيسية بشغف كبير.¬ إنه مُطهِّرٌ خفيٌّ بامتياز.
لا بد أن العاصفة الرعدية قد "أزالت مغناطيسيتي"، إن جاز التعبير، وجرفت معظم التيارات السحرية التي لا شك أنها أثرت عليّ خلال الأيام القليلة الماضية.
عندما عدت إلى المدينة، بدا لي أن قدرتي على رؤية الأمور بطريقة واقعية تماماً قد ازدادت بشكل كبير.
ذهبتُ إلى المبنى السكني لأعضاء الأخوية، حيث لا يُسمح بدخول الضيوف. عند وصولي، وجدتُ أن المشرف قد أُبلغ مسبقًا بأن أمير النور قد منحني الإذن بزيارة المكتبة، التي لا يُسمح بدخولها عادةً إلا لأعضاء الأخوية. بدا التنظيم في المدينة مثاليًا، فلا شيء يُغفل عنه، وكل شيء يبدو مُخططًا ومنظمًا بدقة.¬¬
تم تسجيل ذلك. فكرتُ: "لا يمكن أن تسير الأمور في تلة النمل بسلاسة أكبر".
كان ناربو موجوداً في المكتبة، فنهض ليحييني.
يبدو أن المشي، والجو المحايد خارج المدينة، و"الاسترخاء" الجيد قد زاد من قدرتي على فحص الأمور بموضوعية.
بدت عينا ناربو أكثر جمودًا. كأنّ مغناطيسًا خفيًا قد استخرج منه كل ما هو جميل فيه؛ روحه، حريته، شخصيته. استمعتُ إلى صوته. بدا معدنيًا وأكثر جفافًا مما كان عليه في أغنيته.
أخبرته أنني كنت في نزهة.

بينما كنت أتحدث إليه، بدأت أستمع إلى صوتي. كان فيه شيء من الخشونة والخشونة. لم يكن بحة صوتية - كلا، بل كان شيئًا أسوأ بكثير.
تركتُ ناريو، الذي كان يدرس مخطوطة مكتوبة بالسنسكريتية، وتوجهتُ إلى المرآة. عندما رأيتُ نفسي، تراجعتُ إلى الوراء مذهولة. لم أرَ عينيّ من قبل، "نافذتي الروح"، تحدقان هكذا بلا حياة. أين أنا؟ كان هناك شيء غريب في ملامحي أيضًا. كان فيها شيء من ابتسامة شيطان. ما معنى كل هذا؟
تجولتُ حول مبنى المكتبة الدائري، الذي أضاءه ضوء النهار الساطع المتسلل من السقف. تفحصتُ الصور المعلقة على الجدران. كانت هناك نسخٌ من صورٍ مختلفةٍ لـ"منقذي النفوس" و"المخلصين" من العصور الماضية؛ وكانت هناك صورٌ بدت وكأنها مُكبّرة.
المدينة تحت الأرض149 نسخة طبق الأصل من "الجوهرة العليا" وأبرز مساعديه.
نظرتُ في أعينهم. كانت جميلة لكنها كئيبة. كل شيء كان موجودًا، الذكاء، القوة، لكن لا روح! صرخ كل ما في داخلي في عذابٍ شديد. جلستُ ووضعتُ يديّ أمام وجهي. لقد أدركتُ طبيعة كل هؤلاء المنقذين للأرواح. لقد كانوا ملائكة ساقطين.
كانوا ملائكة فقدوا مجدهم لأنهم أرادوا أن يكونوا مثل الله. وعندما ألقوا بأنفسهم في الهاوية السحيقة التي لا عودة منها، تمامًا كمتسلق الجبال الذي يندفع نحو الشمس فيسقط في الهاوية، انقلب الملائكة الساقطون على الخالق، وأصبحوا يعيشون الآن ليجعلوا الآخرين يشاركونهم مصيرهم المروع بسحبهم معهم إلى الهاوية.¬
كان أمير النور في الحقيقة أمير الظلام متنكراً.
كانت الدقائق القليلة التي أعقبت هذا الإدراك هي الأشد رعبًا في حياتي. صرخ كياني كله في عذاب روحي. ظاهريًا كنت هادئًا ومتزنًا، لكن داخليًا كنت أسيرًا لعاصفة روحية تهز أركان وجودي. كان عذابي شديدًا لدرجة أن الكلمات تعجز عن وصفه. وحدهم من ذاقوا طعم الروحانية يدركون المعنى الحقيقي لعبارة "أشد عذاب روحي".¬¬
كان الأمر كما لو أن تجربة مئات التجسدات، ومعاناة وجودات كاملة، قد تركزت في غضون دقائق قليلة من الروحانية.¬¬
ألمٌ شديد. كان عذابي بالغاً لدرجة أنه لا بد أنه أثّر على الأجواء الروحية لمدينة المُريدين. شعرتُ حينها بتيارات مغناطيسية قوية تندفع نحوي من كل جانب لإخماد هذا الإدراك الروحي الذي اكتسبته حديثاً.
فُتح باب ودخل الأمير المكتبة التي لم يكن فيها سوى سكرتيرين اثنين. نهض الجميع.* ثم اقترب مني.
"هل اتخذت قرارك؟" سأل بصوت جميل ولكنه أجوف ومعدني بشكل مروع.
أجبت بحزم: "نعم".
نفخ نفساً قوياً في وجهي مباشرة.
فكرتُ قائلًا: "أيها الساحر الملعون، الآن تكشف عن حقيقتك!"
"تراجعوا - باسم الخالق أنا!" كدتُ أصرخ بصوتٍ جبار. أظن أنني لم أسمع صوتي من قبل بهذه القوة والحيوية. لقد اندمج كياني كله في وحدةٍ واحدةٍ لا تنفصم، وتجسدت ذاتي كلها في ذلك الصوت.
تراجع الحاكم. ثم استدار بسرعة وغادر المكتبة.
أدركت فجأة أن عقوبة إدراك الطبيعة الحقيقية لمثل هذا الكائن هي الموت.¬
لقد شرحت سابقاً أن القصر كان متصلاً بالمباني الأخرى عبر ممرات تحت الأرض. وبذلك، كان بإمكان الأمير الوصول إلى أي جزء آخر من المدينة الجوفية في غضون دقائق معدودة.

إن النفخ في وجه شخص آخر سمة مميزة للشياطين أو أتباعهم أو تلاميذهم المتجسدين في الجسد. بهذه الوسيلة يحاولون السيطرة على الشخص المستهدف والحصول على أساس متين لعمليات سحرية لاحقة تهدف إلى سلب إرادته الحرة. أفضل درع روحي ضد هذه الممارسة المروعة هو الإرادة الحديدية، والوعي الذاتي العميق، والموقف الذهني القائل "ليعاقبك الخالق على ذلك" دون كراهية. أما أفضل علاج جسدي ضد لدغات الشياطين فهو تناول الفول والخبز المحضر بكمية كبيرة من الخميرة، وأنواع مماثلة من الأطعمة التي تُنتج غازات وفيرة داخل الجسم.

بعد فشله في انتزاع روحي وأنا على قيد الحياة، وبفضل الحماية التي يوفرها لي ذكائي، فإنه سيحاول بلا شك قتلي عن طريق الممارسات الخفية، حيث قد يكون من الأسهل عليه انتزاع روحي "في العالم الآخر".¬

لطالما تحليت بالشجاعة. ذات مرة، انطلقت رصاصة من مسدس على بُعد بوصات قليلة من وجهي، ومرت بجانب أنفي، لكن أصدقائي أكدوا لي أنني بالكاد حركت رموشي. سافرتُ إلى أكثر بقاع العالم عزلةً وحدي، حاملاً طعامي الذي يكفيني لخمسة عشر يومًا، مع علمي التام بأن التواء الكاحل أو أي حادث بسيط آخر سيعني موتًا محققًا. واجهتُ الموت وجهًا لوجه مرات عديدة دون أن أُظهر أدنى انفعال.

لكن الأمر الآن مختلف. لم أكن أقاتل من أجل الحياة، بل من أجل روحي.

كان الأمر كما لو أن هاوية لا قعر لها قد انفتحت أمام قدمي، ويد باردة حاولت أن تمزق قلبي وتسحبني بعيداً عن الخالق إلى الأبد.

لأول مرة في حياتي، هربتُ مذعورًا. وبينما كنتُ أركضُ إلى غرفتي لأخذ أغراضي ومغادرة المدينة بلا عودة، ارتكبتُ خطأً فادحًا بالتوجه نحو مبنى الصرف الصحي بدلًا من دار الضيافة. (كما ذكرتُ سابقًا، كانت جميع "المباني" في المدينة متشابهة من الخارج). نزلتُ الدرج مسرعًا، مارًا بسرعة البرق عبر الممرين اللذين كنتُ أسلكهما عادةً للذهاب إلى غرفتي في دار الضيافة.

لم أكن أدرك أنني في المبنى الخطأ، وعندما نهض خادمان لإيقافي، ببساطة
دفعهم جانباً بأقل قدر ممكن من العنف الذي كان ضرورياً للغاية وفتح باباً.

كنت في "مطبخ" المدينة، الذي لم يكن لأحد حق الوصول إليه سوى طاقم المطبخ وأعلى المريدين.

كانت جثة بشرية ملقاة في وسط المطبخ. طهاة بلا حراك، أشبه بالآلات، يقطعون قطعاً صغيرة من اللحم. عُلّقت عشر أو خمس عشرة مقلاة كبيرة مصنوعة من الفضة الخالصة فوق العديد من النيران التي يبدو أنها تُغذّى بالكحول، ونُقلت قطع اللحم البشري إلى ألواح حيث قُطّعت بعناية إلى قطع صغيرة.

لم يكن من المؤكد تمامًا، بالطبع، أن محتويات الأواني الفضية كانت مخصصة لأعضاء وضيوف المدينة المقدسة، لكن مجرد احتمال تناولي لمثل هذا الطعام كان أمرًا مروعًا. إذا كان لحم بشري مختلطًا بالفعل بطعامنا، فلا عجب أنه لم يناسبني.¬

حدق الطهاة في الدخيل بنظرة حادة، لكن ثانيتين أو ثلاث كانت كافية لإلقاء نظرة على المطبخ بأكمله، وسارعتُ على الفور بالعودة إلى بيت الضيافة.

كان ناربو قد تبعني من المكتبة. لقد فقد أثري، والآن كان ينظر بقلق في جميع الاتجاهات بينما كان يقف أمام دار الضيافة.¬

صرخت قائلة: "انتظر هنا من فضلك"، وبعد دقيقة عدت ومعي أغراضي، بما في ذلك زجاجة البول، التي لم أرغب في تركها خلفي لأنني أدركت أنها ستوفر أساسًا ممتازًا لعمليات سحرية موجهة ضدي.¬

رافقني ناربو خارج المدينة إلى اللوحات التي تحمل نقش "الحدود". ففي النهاية، هو من دعاني، وكان عليه أن يوصلني بأمان إلى أسوار المدينة.
قال ناربو بحزن: "إذن أنت ذاهب".
الرجل المسكين ذو القلب الطيب ظن أنه في مدينة قوة نورانية عظيمة، وفكرة أنه لا يريد "الخلاص" أحزنته.
للحظة فكرت فيما إذا كان ينبغي عليّ أن أخبره بصراحة أنه موجود بالفعل في مدينة الشرير، ولكن الغريب أنني شعرت أنني لا أستطيع.
لأن الإدراكات الروحية تستلزم مسؤوليات روحية هائلة.
حتى قوى الشر لها رسالتها الروحية. إنها تخطف الأرواح إذا تخلى عنها البشر أنفسهم. بذنوبهم الروحية يُضعف الإنسان نفسه الروابط التي تربطه بروحه، وكلما ازداد ذنبه الروحي، ازداد عمى بصيرته حتى يعجز عن التمييز بين الله والخالق، مهما بلغت براعة أعماله الخفية. يُغوي الشيطان، لكنه لا يستطيع أن يستولي إلا على النفوس التي تستسلم طواعيةً لإغوائه.¬
هذا قانون من قوانين الكون. شعرتُ أنني عاجز عن إنقاذ أحد من شرّ الشيطان. لو أخبرتُ ناربو أن الجوهرة المُعظمة هي نفسها أمير الظلام، لكنتُ أثرتُ على توجهه الروحي وتدخلتُ في مصيره الروحي الذي كان بين يديه. شعرتُ أنه ليس لي الحق في فعل ذلك، لأن القانون الروحي الأسمى مطلق.
لكل فرد حرية الاختيار. يستطيع الإنسان أن يختار النور الساطع، ولكنه يستطيع أيضاً أن يلقي بنفسه في الهاوية السحيقة التي لا عودة منها.
يا للمآسي المروعة للحياة الروحية!
كان ناربو واقفًا هناك، طيب القلب، لا يعاني إلا من قليل من الغرور الروحي، ولكنه في جوهره طيب. أراد إنقاذي، مع أنه هو من كان بحاجة إلى الخلاص، ولم أستطع إنقاذه. كان عليّ أن أتركه لمصيره. شعرت بمأساة اللحظة حين سلمت عليه وانصرفت.
كما أن لأصغر المخلوقات مهمتها في الكون، فإن لكل قوة روحية، سواء أكانت تنتمي إلى مسار الحياة الصاعد أم الهابط، مهمتها أيضاً. وهي مقيدة بقوانين روحية متأصلة في طبيعتها. ولا يُشترط أي قسم خاص لإبقائها ضمن هذه الحدود. ولا يمكن لأي كائن روحي أن يتصرف بما يخالف طبيعته الروحية.
يسلك كل من الله والشيطان طريقه الخاص. ويستطيع المخلوق أن يتحكم في مسار حياته صعودًا أو هبوطًا متى شاء. وكلما ازداد إثمه على نفسه، ازداد ضلاله. ولكن إذا ما لقي حتفه، فلن ينقذه أحد.
لقد مكثت ثلاثة أيام في مدينة المبتدئين، لكن يبدو أن تجربة عقود كاملة قد تم حشرها في هذه الأيام الثلاثة المهمة.

الفصل الرابع
الرحلة

اتجهتُ نحو المنطقة التي يسكنها صديقي الناسك التبتي، الذي أحضر لي أخوه ملابس تبتية من جنوب صحراء غوبي. شعرتُ أن حاكم المدينة المقدسة لن يشعر بالأمان ما دمتُ على قيد الحياة، ولأنه من المستحيل عليه أن يأمر بقتلي علنًا - ولو كان ذلك مراعاةً لناربو، الذي ربما انفتحت عيناه على الحقيقة - فإنه سيحاول بلا شك قتلي بسحرٍ قوي.
حتى الهجمات من هذا النوع تصبح أكثر صعوبة عندما تزداد المسافة التي تفصل الساحر عن عدوه، ولأنني لم أكن أرغب في محاربة هذه التيارات أكثر من اللازم، فقد كنت أنوي الانطلاق بمعدل حوالي ثلاثين ميلاً في اليوم وأخذ قسط من الراحة عند وصولي إلى مسكن الناسك الحكيم.
كان الوقت متأخراً من المساء، وما إن حلّ الليل حتى نصبت خيمتي في مكان يبعد حوالي ثمانية أميال عن المدينة تحت الأرض. وبطبيعة الحال، اخترت مكاناً يختبئ فيه المرء خلف تلال صغيرة.
كنت أعلم أن الهجمات السحرية التي كان عليّ توقعها ستُشن على الأرجح خلال الليل، وأن أسوأ الساعات هي تلك التي تسبق الواحدة صباحًا، وأنه طالما بقيت مستيقظًا و
156 ظلام فوق التبتمع إدراكي الكامل لمحيطي المادي، سيتم تقليل تأثيرها تلقائيًا.
لقد تعرضت لمثل هذه التأثيرات السحرية في مناسبات سابقة، لكنني أدركت أن تلك كانت مجرد لعب أطفال مقارنة بما كان علي أن أتوقعه من سحرة خبراء ملتحمين في أخوية سرية قوية يرأسها أمير الظلام بنفسه.
بقيتُ مستيقظًا طوال الليل، ولم أشعر إلا ببعض الآلام الغريبة في الجانب الأيسر من صدري فوق القلب مباشرةً. قد يتخيل القارئ أنني كنتُ غارقًا في التفكير طوال تلك الليلة.

لقد كانت هناك مغامراتٌ مكثفةٌ خلال فترةٍ تزيد قليلاً عن أسبوعين، تكفي لملء حياةٍ كاملةٍ لعدة أشخاص. لقد كنتُ سعيداً حقاً بهذه الساعات الهادئة التي أتاحت لي استيعاب كل هذه التجارب الروحية.
ثم فكرت في دولما الجميلة والمأساة الرهيبة المتمثلة في عجزي عن إنقاذها أو أي شخص آخر من براثن الأمير الذي يخطف الأرواح.
في ساعات الفجر الأولى، شعرتُ بنعاس شديد، ولجزء من الثانية فقدتُ وعيي تمامًا. في تلك اللحظة القصيرة من شبه الوعي، سمعتُ صوت غطاء خشبي يُغلق فوقي مباشرةً. انتفضتُ واستعدتُ وعيي تمامًا. شعرتُ أن السحرة كانوا يمارسون طقوسهم. كانوا "يدفنونني" في المدينة. بما أنني لم أترك شيئًا خلفي، فربما يكونون قد حصلوا على الورقة التي كتبتُ عليها تلك الكلمات القليلة بالأحرف التبتية عند وصولي إلى دار الضيافة. لذلك كان لديهم على الأقل شيء واحد، "أساس" واحد، لعملياتهم السحرية. ربما كانوا "يدفنون" الورقة مكاني، وفي الوقت نفسه يركزون عليّ.

كل اهتمامهم، وإقامة جنازة عادية بطقوس مفصلة.
قبل شروق الشمس بقليل، طويت خيمتي، ولكن عندما كنت على وشك الانطلاق، وبعد أن وصلت إلى قمة المرتفع الصغير خلف المكان الذي قضيت فيه الليل، رأيت موكبًا من الناس يتجه نحوي. انحنيت على الفور واتجهت نحو أعمق منخفض في محيط مئة ياردة. هناك، حفرت نفسي بسرعة في الرمال.
بعد ربع ساعة، كان الموكب على مقربة. ما الذي يفعله هؤلاء الناس هنا في الخامسة والنصف صباحًا؟ كان الموكب متجهًا نحو المدينة الجوفية، ولدهشتي الكبيرة، جاء بعض الناس من الاتجاه المعاكس لمدينة المُريدين.
وصل الموكب إلى أقرب منخفض، على بُعد حوالي ثمانين ياردة من المكان الذي حفرتُ فيه خندقي وانتظرتُ فيه الناس القادمين من المدينة. نظرتُ إلى ملابسهم، التي بدت مألوفة. كانوا خدامًا من المدينة يحملون جثثًا ممددة على نوع من النقالات. سار بعضهم خلفهم مرتدين زيًّا تبتيًّا تقليديًّا.
إذن، كان بعض مساعدي الأمير من قاطعي الجثث. هل من الممكن أنهم أخذوا الجثث؟¬
من العائلات التي تعيش في المنطقة، وبدلاً من تقطيعها، ابتكروا حيلة ما لسرقة الجثث وتهريبها إلى المدينة تحت جنح الظلام؟
وصل الناس القادمون من المدينة. عرفتهم من أرديتهم السوداء البراقة. كانوا سادة في جماعة السحرة. ركعوا قرب الجثث الهامدة، ثم بدأت طقوس سحرية "لإنعاشها". يؤسفني أنني مضطرٌّ لحجب بعض التفاصيل المتعلقة بهذه الطقوس، فبعضها كان مقززًا لدرجة أنني لا أستطيع وصفه، حتى باللاتينية.
بعد "عمل" شاقّ تفاوتت مدته بشكل كبير، بدأت ثلاث من الجثث الهامدة بالتحرك وسارت نحو المدينة آليًا، كآلات كثيرة، يقودها أحد السادة. هل كانت الجثث الهامدة ميتة حقًا قبل بدء محاولات إنعاشها؟ إن كان الأمر كذلك، فمن المروع تخيّل نوعية الخدم الذين نظفوا غرفتي وأعدوا الطعام في المدينة المقدسة!¬¬
خمس جثث أخرى هامدة، لم تُجدِ معها محاولات الإنعاش نفعًا، نُقلت إلى المدينة المقدسة. ولأن الجوهرة المُعظمة كانت ذات طبيعة عملية، فربما لم ترغب في فقدان أي جثة هامدة حصلت عليها بالخداع أو الرشوة. أما الجثث التي لا أمل في إنقاذها، فربما أُرسلت إلى المطبخ، وعظامها إلى المعبد.
يا للهول!

ما إن اختفى الموكب، الذي تسبقه الروبوتات المتحركة بقيادة السادة، عن الأنظار، حتى اقتربت لأتأكد مما إذا كانت النقالات وآثار الأقدام العديدة قد تركت بعضاً منها أثراً على الأرض. كانت التجربة غريبة لدرجة أنني أردت التأكد مما إذا كان بإمكاني تصديق ما رأيته. بعد فحص آثار الأقدام بدقة متناهية، واصلت سيري.¬

لماذا يا ترى أقام هؤلاء الناس تلك الطقوس المروعة في وضح النهار؟ كان لديهم مدينة تحت الأرض كاملة حيث يمكنهم فعل ما يحلو لهم، محاطين بآلات متحركة لا يمكنها خيانتهم أبدًا. وحتى لو لم يكن من الممكن إقامة مثل هذه الطقوس تحت الأرض لسبب أو لآخر، فلماذا أقاموها في وضح النهار؟ صحيح أن فرص لقاء أي شخص في ذلك الجزء الموحش كانت ضئيلة للغاية، ولكن، مهما كانت ضئيلة، فلماذا خاطروا بذلك أصلًا؟¬

وبينما كنت أواصل سيري، فكرت أكثر في هذا الاتجاه، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أنه إذا خاطر هؤلاء المحتالون الأذكياء بأي شكل من الأشكال، فلا بد أن يكون لديهم سبب وجيه للقيام بذلك.

أُقيمت طقوس "الاستيقاظ" في ضوء الشمس التي أشرقت للتو. بدا هذا وكأنه إشارة إلى أن التيارات الكونية التي احتاجوها لغرضهم الشنيع بلغت ذروتها بعد شروق الشمس مباشرة. فالشروق والظهيرة هما وقت الله، والغروب ومنتصف الليل هما وقت الظلام. وهكذا، سرق الشياطين قوى كونية من الخالق لإنجاز عملهم المروع.

وكالعادة، يكون الشرير في أوج قوته عندما يسلب قوى الخالق ويستخدم القوى الإلهية لتحقيق غاياته الخاصة.

بالطبع، استندت كل هذه التكهنات إلى الافتراض بأن مركبات النقل الثقيلة قد قامت بالفعل بمرافقة الجثث.

واصلت سيري بأقصى سرعة، وقمت بمراجعة أحداث الأيام الثلاثة الماضية مرة أخرى.

لماذا نجوت؟

أتيتُ إلى المدينة بدعوةٍ وتوصيةٍ من ناربو، الذي كان مُضلَّلاً بدوره ولم يُدرك حقيقةَ جماعةِ الإخوة. دخلتُ المدينةَ بنيةٍ خالصةٍ للمساعدة لا لمصلحةٍ ما. ثارتْ طبيعتي المُتأصِّلةُ حين اقترحوا عليَّ ارتداءَ الرداءِ الاحتفاليِّ الأسودَ الذي كان على الأرجحِ ممغنطًا. فشلتْ كلُّ حيلِهم الخفيةِ، وطعامُهم المسحور، وربما خدعٌ أخرى لم أكن أعرفُ عنها شيئًا، في تحقيقِ النتائجِ السحريةِ التي كانوا يبتغونَها، لأنني طوالَ إقامتي في المدينةِ لم أرتكبَ ذنبًا قط، حتى في التفكير. لا يستطيعُ الشيطانُ أن يأخذَ إلا من يُسلِّمُ نفسهَ له طواعيةً، وحيثما يتجاوزُ هذا الحدَّ، هناك ملائكةُ الخالقِ تحمي الأبرياء.¬¬

لقد حاولوا انتزاع روحي، وأنا أحب روحي التي من خلالها يتحدث إليّ الخالق عبر قلبي. كلما زاد سعيهم لانتزاعها، كلما تمسكتُ بها بشدة.

قد تُهلك الحرائق العظيمة، كغيرها من مصائب الحياة، الضعفاء، لكنها تُنقي الأقوياء وتزيدهم قوة. وباتت لديّ قناعة متزايدة بأن الحياة، بما فيها الحياة الروحية، ليست تأملاً هادئاً وعبادةً صامتة، بل هي صراعٌ رهيب، ومعركةٌ ضارية، ونضالٌ مرير.

♦ قاطعو الجثث.

لو أنني رأيت هذا الموكب قبل ثلاثة أيام يحمل جثثاً هامدة على نقالات، لربما انفتحت عيناي على الفور. لربما أدركتُ على الفور حقيقة جماعة الإخوان، وبالتالي ضاعت عليّ أعظم تجربة في حياتي.

شهد اليومان التاليان سلسلة من المتاعب، بعضها طفيف وبعضها جسيم. هاجمتني أسرابٌ من البعوض، وخلال الليل، بينما كنتُ مستيقظًا تمامًا على الأرض - وقد ذكرتُ سابقًا سبب اضطراري للتضحية بالنوم - سمعتُ سلسلة من الأصوات الغريبة في الظلام. كان هناك هرولة وحركة ذهاب وإياب مستمرة تُشبه الأصوات التي تسمعها في مستودعٍ تعجّ بآلاف الجرذان الكبيرة. في الصباح، وجدتُ أن معظم طعامي قد أُكل خلال الليل، بل حتى معداتي تضررت من لدغات لا يُمكن تفسيرها إلا بجرذانٍ ضخمة.

في الليلة التالية، مررت بتجربة مروعة مع طفيليات قاتلة سبق أن وصفتها في كتابي السابق. كدتُ أن أموت نزفًا لولا أنني انتبهت لتلك المخلوقات في الوقت المناسب. كانت هذه الليلة الثالثة منذ مغادرتي المدينة، ولأول مرة منذ ذلك الحين، نمتُ قليلًا، ولكن في كل مرة كنتُ أنتقل فيها من حالة الوعي الكامل إلى حالة شبه الوعي التي تسبق النوم عادةً، كنتُ أشعر وكأنني مستلقٍ في نعش. لذلك بذلتُ جهدًا متواصلًا للعودة إلى كامل وعيي والبقاء مستيقظًا حتى بزوغ الفجر.¬

مرة أخرى، أتيحت لي فرصة كبيرة للتفكير في الممارسات المروعة وطقوس الإنعاش الغريبة لخاطفي الأرواح في مدينة المبتدئين.

ما هو الفرق الجوهري بين أعضاء جماعة الإخوان الذين أعطوا، أو كانوا في طريقهم لإعطاء، أرواحهم للشيطان من جهة، وأولئك الخدم الموتى من جهة أخرى؟

إذا كان الإنسان معقداً حقاً، فممّ يتكون؟

أدركتُ، بالطبع، خطورة هذا النوع من التأملات. فالوعي، الذي ينبغي أن يكون شاملاً في الإنسان، يميل إلى الانقسام، وهذا خطر حقيقي للغاية. وبإفراط الإنسان في التأملات من هذا النوع، فإنه يُهيئ بيئة خصبة للقوى الروحية العظيمة التي تُشكل جزءًا من تيار الحياة الهابط، والتي تخدم غرض التفكك.

فكرتُ أن الطبيعة الجسدية للإنسان خماسية. فهناك خمسة أجهزة عضوية في أجسامنا ترتبط بها جميع وظائف الجسم العضوية؛ وللإنسان خمس حواس؛ وخمسة أصابع في كل يد وخمسة أصابع في كل قدم - يبدو أن الرقم خمسة هو رقم الكائن، والإنسان على وجه الخصوص. ولكن حتى لو نظرنا إلى ما هو أبعد من الجانب الجسدي للإنسان، فإن طبيعته تبدو خماسية. فالإنسان وحدة تتكون من خصائص جسدية بحتة، والإحساس، والشعور، والذكاء، والإرادة. فلماذا لا يكون مكونًا من خمسة مركبات مختلفة ملحومة في وحدة واحدة، والتي من الأفضل للإنسان ألا يحاول فصلها تحت أي ظرف من الظروف؟ (تذكرتُ الجريمة الفظيعة التي ارتكبها السونغمي في الدير التبتي ضد نفسه وروحه - انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب - والمواقف التبتية).¬¬¬

* مبدأ شيوا عند الهندوس. بالمناسبة، كلمة "أتشي" تعني "الموت" في اللغة التبتية، وكلمة "سيري" تعني "ميت".

عندما يتخلى الناس طواعية عن السيطرة على جميع المركبات التي تنتمي إليهم بشكل قانوني، وبالتالي يعرضون أنفسهم لجميع أنواع الكيانات غير المادية، تمامًا مثل رجل قد يفتح أبوابه ونوافذه ليلًا في منزل مبني في الغابة.

كان الفرق بين أعضاء الأخوية والخدم الموتى الذين تم إحياؤهم بواسطة الممارسات السحرية كما يلي، على حدّ اعتقادي:

لقد وهب الإخوة أرواحهم للشيطان. كانوا بشرًا ذوي أجساد وإحساس وشعور وعقل، لكن إرادتهم لم تعد ملكًا لهم. لقد تخلوا عن أسمى صفاتهم، إرادتهم الحرة، للشيطان.

أما الخدم، من ناحية أخرى، فقد ظننتُ أنهم مجرد آلات. فعندما يموتون، تغادر مركباتهم الدقيقة جثثهم فورًا بعد الموت، ولا يبقى سوى أجسادهم المادية، ومبدأ حياتهم - الذي هو مركز الإحساس - يطفو بالقرب من الجثة. ثم يُسرق الجسد، ويُجبر مبدأ الحياة على العودة إليه. إذن، الخدم مجرد تجمعات من جسد ومركبة إحساس، أي مجرد آلات تمتلك جسدًا وإحساسًا، لكنها خالية من الشعور والذكاء والإرادة.¬¬

على الرغم من بشاعة ممارسة سرقة الأجساد هذه، إلا أنها بدت أقل مأساوية بكثير من سرقة الأرواح التي كانت تجري في المدينة المقدسة، بالنسبة لأرواح الرجال الذين سكنوا¬

أكدت تجربتي الكاملة في المدينة هذا الرأي. لم يكن لدى الخدم أي ذكاء على الإطلاق. كانوا يرددون صيغًا معينة بشكل آلي. كانوا مجردين تمامًا من القدرة على التفكير المستقل والشعور بالعواطف. كانوا مجرد أجساد وحواس لا غير. بمعنى ما، كانوا الخدم المثاليين.¬

لم تتأثر جثث الخدم بحقيقة أن جثثهم قد سُرقت على يد مساعدي الأمير.

لقد بزغ الفجر، فنهضت لأواصل المسير.

لقد مررت بيوم آخر شاق وغير مريح.

"بالصدفة" انقطع عني كل الماء في الصباح الباكر. لم يكن هناك أي عاصفة رعدية طوال اليوم. كان الجو حارًا أكثر من المعتاد بعد الظهر، وعانيت من عطش شديد. استلقيت في فترة ما بعد الظهر وشفتي جافتان، وغفوت. استيقظت عند حلول الليل تقريبًا. شعرت بانتعاش رائع. شعرت بالسعادة، لأنني كنت أملك فرصة أفضل للبقاء مستيقظًا خلال الوقت الذي بدأت فيه تلك الممارسات السحرية الغريبة بعد منتصف الليل بقليل.¬

في اليوم التالي، زرتُ أحد الأديرة التي ذكرتها في كتابي السابق، ومرة أخرى، وبمحض الصدفة، مررتُ بواحدة من أسوأ تجاربي. كدتُ أن أُكتشف من قِبل الرهبان، واضطررتُ لمواجهة محنة الجلوس بلا حراك لساعات طويلة حتى تمكنتُ من الفرار.

تمت زيارة دير آخر بعد يومين.

وكما جرت العادة في الأديرة التبتية، عُرض عليّ ماء مقدس للشرب. لم يكن من الممكن الرفض، إذ بدا جميع الحجاج الآخرين حريصين جدًا على شرب الماء المقدس، الذي كان يقدمه نوع من خدام المعابد. لو رفضت، لربما لفتت انتباهًا غير مرغوب فيه. بعد ساعة، أحدث الماء المقدس رد فعل غير مرغوب فيه للغاية على صحتي الجسدية.

هؤلاء الحراس، بالمناسبة، يحصلون على نصيب الأسد من العملات المعدنية "المجمعة" من الحجاج المتدينين في الأديرة التبتية.

أعلم أن نبات زيت الخروع (utpa-lam-dag) معروف على الأقل في جنوب التبت، لكنني لا أظن أن حراس المعابد بارعون لدرجة إضافة زيت الخروع إلى الماء المقدس من أجل جني بعض المال بعد ذلك من خلال توفير مرافق معينة.

كان الأمر يتعلق بكائن 165، وبما أن الترتيبات الصحية في الدير لم توفر درجة الخصوصية اللازمة التي يتوقعها الغربي كحق طبيعي له في بعض المناسبات، فقد تطلب الأمر قدراً غير عادي من المهارة والبراعة وكل ما لدي من حيلة للخروج من هذه الصعوبة، لأنني كنت متنكراً في زي تبتي ولم أصبغ سوى وجهي ويدي فقط، لأن مخزوني من الألوان كان محدوداً للغاية.¬¬

ثم قضيت بضع ساعات أتجول بهدوء في أرجاء الدير. ولأنني كنت أتظاهر بالصمم والبكم لإخفاء لكنتي الأجنبية، فقد استمتعت أيضًا بميزة لا تُقدر بثمن، وهي عدم تعرضي لمضايقات المرشدين السياحيين

الذين يستغلون الحجاج في الأديرة التبتية، مهما بلغ فقرهم، إذ يبدو أنهم يعلمون من واقع خبرتهم أن الفقراء المتدينين يسعدون دائمًا بالتبرع بآخر ما يملكون لأغراض دينية. فكرت كم سيكون السياح الغربيون حكماء لو اتبعوا الحيلة الذكية المتمثلة في التظاهر بالصمم والبكم عند زيارة بعض المراكز السياحية المزدحمة بالمرشدين.
تأملتُ جيدًا تماثيل الزبدة التبتية. كانت هناك تماثيل في الدير مصنوعة بالكامل من الزبدة الممزوجة بالتراب الملون. وبطبيعة الحال، كانت هذه التماثيل موضوعة في الظل، لأن ظهيرة أيام الصيف حارة جدًا. ابتسمتُ مرة أخرى عندما فكرتُ في أن التماثيل تتجنب أشعة الشمس، لأنها تميل إلى إذابتها. ألم يكن ذلك رمزيًا، كما فكرتُ، أن التماثيل لا تستطيع أن تُؤثر إلا في الظل وليس تحت أشعة الشمس الساطعة؟¬
أقامت مراسم احتفالية متقنة من قبل
اللامات. تم استخدام كمية وفيرة من عظام البشر لصنع المجامر وغيرها من الأشياء المستخدمة في العبادة الإلهية.
فكرت في المدينة المقدسة. بدا أن الروح نفسها تسود في الدير، وإن كان ذلك بطريقة مخففة للغاية.
وزّع اللامات حبوباً مصنوعة من الأرز على الحجاج بعد أن قاموا بتكريسها بطقوس مُفصّلة. تذكرت المعبد في المدينة.
وتحدث اللامات أيضاً عن ضرورة الإيمان الأعمى بمحتويات كتبهم المقدسة البالغ عددها 333 كتاباً. فكرتُ، تماماً كما هو الحال مع أعضاء جماعة الإخوة في المدينة. هناك أيضاً، كان لا بد من التخلي عن أسمى هبة للإنسان - ذكائه - وتجاوزها.
كانوا يتحدثون باستمرار عن "الخلاص"، عن "إنقاذ" الروح بتسليمها إلى الله. كانت العديد من المحادثات التي حضرتها في المدينة - في قاعة الطعام وغيرها - وربما معظمها، تحمل تشابهاً واضحاً مع خطب اللامات. كنت أظن أن الأمير يُلبي احتياجات المختارين، بينما يُلبي اللامات احتياجات العامة، لكنني لم أجد فرقاً جوهرياً بينهما.¬
وأشرقت شمس الله على الدير.
فكرت في المأساة المروعة لعالم يثور علناً ضد خالقه.
قضيت بضع ساعات في دراسة آلية التأمل التي وصفتها في كتاب سابق، ثم غادرت الدير وقلبي مليء بالحزن.
ألم يكن معظم هؤلاء المساكين في نفس وضع ناربو؟ لقد أرادوا الخلاص وحاولوا إنقاذ الآخرين. وبينما كانوا يبحثون عن الخلاص، تدهورت أرواحهم أكثر فأكثر! وتضاءل وعيهم الروحي. يا لها من مأساة رهيبة أن نعجز عن مساعدتهم!¬
توالت المصائب. كأنّ يدًا خفيةً تعترض طريقي. في صباح اليوم التالي، التقيتُ بعصابة من اللصوص. رأيتهم متأخرًا، وعندما فتشوا أمتعتي، صادروا مني شيئًا كنتُ في أمسّ الحاجة إليه: بطانية رقيقة من الصوف الناعم. لم يجرؤ أيٌّ من اللصوص الذين قابلتهم سابقًا على أخذ البطانية مني، وأنا الذي كنتُ أبدو كمسافرٍ وحيدٍ فقير. لكن هؤلاء اللصوص كانوا أشدّ قسوةً وأقلّ رأفةً. راودني شكٌّ بأنهم في الحقيقة لامات، وأنّهم يمارسون السرقة كهواية. في مناسبةٍ أخرى، تعرّفتُ على لصٍّ يرتدي زيّ لاما عندما زرتُ ديرًا بعد أن تعرّضتُ للسرقة. يُكنّ التبتيون للامات احترامًا كبيرًا، ولا يجرؤون حتى على النظر إليهم، ممّا يُسهّل على الأرجح هذه المهنة المزدوجة.¬¬

أتساءل عما إذا كانت الكتب المقدسة الـ 108 الخاصة بكانجور يحتوي على فقرة تقول: "يجب على يدك اليسرى أن تتجاهل ما تفعله يدك اليمنى".
إذا حدث ذلك، فقد لا يجد اللامات صعوبة في تبرئة أنفسهم من خطيئة السرقة.
قضيت إحدى أسوأ ليالي حياتي.
لم يكن لديّ بطانية، ولم تتجاوز درجة الحرارة في ساعات الفجر الأولى 18 درجة فهرنهايت. وكأنها مصادفة أخرى، حلّت أبرد ليلة منذ أسابيع بعد مصادرة بطانيتي مباشرةً. يتناقض برد ليالي التبت هذه تناقضًا صارخًا مع أشعة الشمس الوفيرة والطقس الحار الذي يسود عادةً في ظهيرة أيام الصيف الصافية. مع أنني أعرف كيف أحمي نفسي من البرد بإبقاء عضلاتي وصدري في حالة استرخاء تام، إلا أن هناك حدودًا للقدرة على التحمل. فالبقاء بلا حراك لساعات في خيمة غير مُدفأة عند درجة حرارة 18 فهرنهايت تقريبًا، دون بطانية، أمر يفوق طاقة أي شخص. كنت أركض من حين لآخر حول الخيمة في دوائر واسعة، ثم أستلقي داخلها منكمشًا كطفل في رحم أمه. لم أذق طعم النوم طوال تلك الليلة.
ثم أشرقت الشمس، وعاد كل شيء مشرقاً من جديد.
هل يوجد ما يرمز إلى الخالق أفضل من الشمس، التي تمنح بسخاء الدفء والحياة لكل من لا يحجب إشعاعها بإرادته الحرة؟ الشمس كريمة ومهيبة، ومع ذلك تحافظ على مسافة بينها وبين من تشرق عليهم. من ينظر مباشرة إلى الشمس قد يصاب بالعمى. وينطبق الأمر نفسه على المخلوق الذي يريد أن يفهم الخالق. إذا رغبت في أن تكون مثله أكثر من اللازم، إذا رغبت في الوصول إلى عالم يتجاوز قدرة المخلوق، فإنك تصيب نفسك بـ
الرحلة169 العمى الروحي والخلط بين القمر والشمس.
مشيتُ بأقصى سرعةٍ ممكنة. لم يكن معي غطاء، وكانت تنتظرني ليالٍ باردةٌ قارسة. لم أكن قد قطعت سوى حوالي 150 ميلاً من مسكن الناسك الحكيم الذي التقيتُ أخاه جنوب صحراء غوبي. سألتُ الأخير إن كان هناك معلمون روحيون عظام يسكنون الطريق لأزورهم عند مروري بالمناطق المعنية. لم يذكر المدينة التي لم أعرف عنها إلا من خلال معرفتي بدولما وناربو، لكنه تحدث عن معلم روحي عظيم يمكنني الاستماع إليه. كان يسكن على جبلٍ شاهق سأعبره قبل أيامٍ قليلة من الوصول إلى المنطقة التي يسكنها عددٌ من النساك، بمن فيهم أخوه.
سألته: "هل يخدم النور أم الظلام؟"
أجاب قائلاً: "لا أستطيع إخبارك بذلك. عليك أن تكتشف ذلك بنفسك."
"أليس من واجبك الروحي أن تحذرني من الشياطين التي قد تظهر بسهولة متنكرةً في زي الملائكة، كما يحدث أحيانًا في الدول الغربية؟" سألتُ أيضًا.
قال: "لا. حتى لو أدركتُ حقيقتهم بنفسي، فإن أسمى واجبات الإنسان الروحية هو احترام الحرية الروحية للآخرين. إن تصنيفي للمعلمين الروحيين وتحديد من هو الشرير ومن هو البريء لن يؤثر على موقفك الروحي. عليك أن تكتشف الأمور بنفسك. أنت ذاهب إلى التبت، وعليك أن تتحمل المخاطر."
كان جوابه حازماً للغاية.
مشيت طوال الصباح، ثم نمت لساعات طويلة بعد الظهر. استيقظت وأنا أشعر بألمٌ غريبٌ للغاية في منطقة القلب. فحصتُ نفسي طبيًا بدقة، حتى أنني صنعتُ سماعةً طبيةً للطوارئ خصيصًا لهذه المناسبة، لكنني وجدتُ أنني سليمٌ تمامًا، وأعتقدُ أنه حتى لو كان هناك طبيبٌ مختصٌ، لما استطاع اكتشاف أي شيء. مع ذلك، كان الألم عنيفًا، كما لو أن يدًا خفيةً تُوجِّه طعناتٍ حادةً إلى قلبي. لذا، إما أنه كان إيحاءً ذاتيًا (تمنيتُ من كل قلبي لو كنتُ أنا من يُعاني منه) أو أنه من فعل أولئك السحرة المزعجين

في المدينة. كنتُ أعلم أن العمليات السحرية من هذا النوع تفقد معظم قوتها بعد خمسة أيام، وكنتُ أتوق بشدةٍ إلى الوقت الذي ستمر فيه خمسة أيامٍ كاملةٍ منذ أن غادرتُ المدينة المقدسة.¬

حلّ المساء، وشعرت بأسف شديد لاستحالة مواصلة السير في الظلام، حيث أصبحت المنطقة الريفية جبلية أكثر فأكثر.

بعد ليلة أخرى شديدة البرودة قضيتها في خيمة غير مُدفأة، بلا غطاء، في درجة حرارة أقل بكثير من درجة التجمد، شعرت بتعب شديد لدرجة أنني غفوت بعد شروق الشمس بقليل. وفي وقت متأخر من الصباح، انطلقت مجددًا بأقصى سرعة، وبعد أن اطلعت على الرسم التخطيطي الذي رسمه الناسك، علمت أن بضعة أميال فقط تفصلني عن الجبل الذي يسكنه المعلم الروحي العظيم.

أخبرني صديقي الناسك أنه يرفض حمل أي لقب، وأنه يعيش حياة بسيطة للغاية دون أن يبذل أي جهد ليكون بسيطاً.¬ أنه لم يكن لديه دائرة خاصة من التلاميذ أو الأتباع، وكان دائمًا ما يؤكد على ضرورة أن يتبع الناس نور عقولهم ولا يسمحوا لأحد بالتأثير عليهم. باختصار، بدا وكأنه النقيض تمامًا لأمير المدينة، وغني عن القول، كنت أميل إلى اعتباره معلمًا صادقًا، مع أنني احتفظت برأيي حتى ألتقي به وبأتباعه.

كان يُعرف باسم الصديق اللطيف، ووفقًا لما أخبرني به صديقي الناسك قبل دخولي التبت، فإن العديد من التبتيين مهتمون بمبادئ دي إم شوج. كانوا من بين زواره الدائمين.

قبل حوالي خمسمائة ياردة من وصولي إلى مسكنه - الصديق اللطيف، كما قيل لي، لم يسافر قط، وكان دائمًا في المنزل - قابلت شابًا تبتيًا لطيفًا وسألته عما إذا كان يعرف مكان سكن المعلم العظيم (stonpatshempo).

"يتأخر، يتأخر"-أجاب: "مقر إقامته هناك. يعيش معه هنا حاليًا حوالي عشرين شخصًا، بعضهم في المقر والبعض الآخر في بيوت صغيرة قريبة. من طلب منك المجيء إلى هنا؟"

أجبت: "لا أحد على وجه الخصوص، لكن أحد أصدقائي الذين يعيشون جنوب صحراء جوبي ذكر لي تعاليمه وأنا مهتم بها".

"لقد عرفت على الفور من لهجتك"، لاحظ، "أنك قادم من مكان بعيد جداً، وربما من منطقة نائية في الشمال".

قلت: "أنت محق".

وصلنا إلى المنزل وطلبت رؤية الصديق اللطيف.

قيل لي إن المعلم ليس لديه ما يقوله للزوار، ولكن إن كنت مهتمًا بتعاليمه، فلا مانع من استماعي لبعض محاضراته. كان المعلم متاحًا للجميع، وليس لأفرادٍ بعينهم. لم يكن أحدٌ أقرب إلى الصديق اللطيف من أي شخصٍ آخر في الحشد، ولهذا السبب لم يكن يستقبل الزوار. لو أردتُ المجيء في صباح اليوم التالي، لكنتُ مرحبًا بي. كان بإمكاني الإقامة في أيٍّ من الأكواخ الشاغرة التي أختارها، وإن لم يكن لديّ ما يكفي من الطعام والوقود، فبإمكاني الحصول على بعض دقيق الشعير وروث الياك المجفف للمنزل. بصراحة، بدأت أحب هذا المكان. بدا كل شيء بسيطاً وواقعياً وغير متكلف. بدا وكأنه النقيض تماماً لتلك المدينة البائسة.¬

في صباح اليوم التالي، التقيت ببعض النزلاء المقيمين في الأكواخ الأخرى. كان جمعًا متنوعًا ينتمي إلى مختلف شرائح المجتمع. حتى أن من بينهم بعض التجار الذين قطعوا شوطًا طويلًا من مركز تجاري هام للإقامة في "جبل البساطة". كان جميع النزلاء مهتمين بشدة بالشؤون الدينية، وبدا أن معظمهم يتمتعون بقدر غير عادي من الذكاء. مع ذلك، لم يكونوا أنظف حالًا من غيرهم من التبتيين الذين يعيشون في ظروف مماثلة.

"أين الكي-سا الخاص بك؟"* كان أحد الأسئلة الأولى.
الشاب الذي قابلته في اليوم السابق أخبرهم كل ما كان يعرفه عني. قال إنني باحث عن الحقيقة، وأن انتباهي قد لفت انتباهي إلى جبل البساطة بواسطة مشروب مخدرات.¬ ،يعيش جنوب صحراء جوبي.
أثارت هذه الملاحظة ضجة كبيرة، حيث لم يزر الجبل سوى عدد قليل من الأشخاص الذين أتوا من مكان "بعيد للغاية" كهذا.
لاحظ بعض الناس أن رائحة غريبة جداً تنبعث مني. وقد لاحظتها بنفسي. كان الأمر كما لو أنني أحمل فئراناً ميتة في جيبي، لكن لم يكن بوسعي فعل شيء حيال ذلك.
كان الحشد الصغير مهتمًا بشدة بالمسائل المجردة. وبينما كنا نسير نحو منصة المحاضرة، ناقشوا مسائل الخير والشر، والنور والظلام، بحماسٍ بالغ. بدا لهم أن الخير والشر غير موجودين أصلًا. لاحظ أحدهم أنه لا وجود لشيء اسمه "الشر"، ووافقه جميع الآخرين. كل شيء ليس إلا انعكاسًا لأنفسنا.
لم أوافق في قرارة نفسي. تذكرت المدينة المروعة التي غادرتها قبل أيام. كنت أعلم يقيناً أن الشر موجود بذاته. لا يمكن لأي قدر من الفلسفة أن ينفي وجود الشيطان أو يتجاهل الازدواجية الواضحة في الطبيعة.
دخلنا "بيت البساطة". لم يكن نظيفًا تمامًا. جلسنا على مراتب. بعد ذلك بوقت قصير، امتلأت الغرفة بأشخاص آخرين، وعندما تجمع ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين شخصًا لحضور المحاضرة، أُغلق الباب الخارجي ووُضع عليه مزلاج، وغادر الصديق اللطيف.
دخل الشخص الذي بدا أن الجميع يعتبرونه معلماً روحياً عظيماً.
قارنته بالزعيم الروحي للمدينة، فبدا نقيضه تمامًا في المظهر. فبينما كان الأمير أو الجوهرة السامية مثالًا للجلال، بدا هذا الرجل مثالًا للتواضع. كان يرتدي ثوبًا بسيطًا رخيصًا يكاد يكون رثًا. كان وجهه وديعًا ولطيفًا، وبدا وكأنه تجسيد للزهد والإيثار والسعادة. كان متقدمًا في السن، وربما كان جسده ممتلئًا بعض الشيء، وربما كان ذلك بسبب قلة الحركة. وكما ذكرت سابقًا، لم يسافر قط.
لقد مررتُ بالعديد من "المفاجآت" الروحية في حياتي (وقد مررتُ مؤخرًا بأعظمها في المدينة)؛ لذا احتفظتُ برأيي فيه حتى أستمع إلى محاضراته عدة مرات، وأدرس آراء من استمعوا إليه. تخيلتُ أن كل هذا سيستغرق عدة أيام. إذ كان لدي شهر كامل متبقٍ لدراسة النساك التبتيين و"الريسبا" (الزهاد والرهبان). والتي كانت المرحلة الأخيرة من رحلاتي في البلاد، قررت أن أضحي بيومين أو ثلاثة أيام لأكتشف كل شيء عن الصديق اللطيف، وجبل البساطة.
بدأ المعلم محاضرته بتوجيه الانتباه إلى العبثية التامة للإرشاد الروحي الواعي. وقال إن على كل فرد أن يكون نوره الروحي ومرشده الخاص. وأضاف أن الروحانية لا يمكن أن تكون غائبة، وشدد على ذلك.¬¬ لقد تكررت الكلمة عدة مرات. كانت موجودة دائمًا. كان على الإنسان أن ينالها من خلال صقل نفسه، والطريق إلى هذا الكمال يتم عن طريق التأمل الذاتي، أي من خلال فهم الذات واكتشاف القيمة الحقيقية للأشياء.
كلما طال حديثه، ازداد إعجابي به. بدا أن هذا الرجل يتمتع بقدر كبير من المنطق السليم والإخلاص.
أثناء المحاضرة، بدت فئران ضخمة وكأنها تلعب مباراة كرة قدم على سطح المنزل. أزعجت هذه الفئران الحديث بشدة، لكن الصديق اللطيف ومعظم مستمعيه كانوا يحبون الحيوانات -جميع الحيوانات- ولم يسمحوا لأحد بمقاتلة الفئران أو مطاردتها أو مطاردة أي مخلوق آخر. كان عدم المقاومة لكل شيء، كما علمت لاحقًا، هو السمة الأساسية لوجودهم، وشمل هذا عدم المقاومة موقفًا سلبيًا تجاه جميع أنواع الحيوانات.

اختلفتُ مع صديقي اللطيف في هذا الشأن، مع احترامي له. فمن الواضح أن هناك عالمين للحيوانات في الطبيعة. إذا كنتُ لطيفًا مع حصان أو كلب، وفي حالات استثنائية حتى مع دب أو سنجاب، فسيكون لطفي مُبررًا. ولكن ماذا عن اللطف مع الطفيليات، أو الثعابين، أو التماسيح، أو أسماك القرش؟ تنتمي هذه الأخيرة إلى فرع مختلف من الحياة. مهما بلغت درجة الحب واللطف وعدم المقاومة، فلن يُضعف ذلك سمكة قرش أو قملة، هكذا فكرت.

ألم يكن الأكل جريمة إذن، لأن الطعام الذي تناوله الصديق اللطيف ومجموعتنا كان كافيًا لإطعام عدد أكبر بكثير من الفئران؟ لا شك أن الكثير منها كان جائعًا، فالفئران وغيرها من الحيوانات الطفيلية تتكاثر دائمًا أسرع قليلًا من كمية الطعام المتوفرة.

قد يكون توفير الطعام لهم مبرراً، بحيث يحتاجون دائماً إلى المزيد من الطعام.

الحياة صراع. في هذا الصراع، يمكن الحفاظ على توازن عادل ومنصف بين الإنسان والحيوانات غير الطفيلية، ولكن يجب محاربة الحيوانات التي تنتمي إلى الفرع الأدنى من الحياة، مثل البعوض والجرذان والفئران والذباب وما إلى ذلك.

تساءلت عما إذا كان الصديق اللطيف سيعترض أيضاً على التطهير أثناء الأوبئة بدافع اللطف تجاه جراثيم المرض إذا ما صادف قدومه إلى الغرب!

ومع ذلك، وبصرف النظر عن هذا التجاهل للحقيقة الأساسية المتمثلة في القطبية في الحياة والتي أدت إلى هذا اللطف السخيف تجاه الفئران، فقد وافقته تمامًا على معظم ما قاله عن الأمور الروحية وضرورة أن يكون الإنسان مستقلاً عن التوجيه المرئي في الأمور الروحية.

لم يُجب على أي أسئلة بعد المحاضرة، ولكن دار نقاش كبير بين أعضاء المجموعة بعد مغادرته الغرفة.

ألقى المعلم محاضرة ثانية بعد الظهر.

بدأ حديثه بموقف حازم ضد الزهد والطقوس الروحية، ووافقته الرأي بشدة. ثم انتقل إلى موضوع السحر، وقال إنه ليس مجرد خرافة، بل جريمة حقيقية.

وتابع قائلاً إن السبيل الوحيد للخلاص هو اختفاء الغرور. يجب على الإنسان أن يتخلى عن وجوده الروحي المنفصل، كما لوحظ في الصيام.

الخطأ الروحي. الجهل، الغباء.

الصديق اللطيف بقوة عظيمة. وتتحقق هذه النتيجة بالتأمل، أي بالتخلي عما أعتبره أسمى شيء في الإنسان، إرادته.

خطرت لي فكرة أن محاولة التشبه بالله من خلال تدمير الوعي الذاتي بالكامل تُعدّ بمثابة انتحار روحي.

لا يمكن أن يكون الفناء هو الغاية القصوى للحياة. فكما أن الأنانية مبررة في الأمور المادية بقدر ما هو ضروري للحفاظ على وجودنا المنفصل، فمن واجب المخلوق الحفاظ على فرديته في عالم الروحانية أيضاً، وإلا فقدت الحياة معناها.

لقد اختلفت بشدة مع الصديق اللطيف في هذا الصدد، على الرغم من أن معظم الأشياء التي قالها في الجزء السابق من محاضرته كانت مقبولة تمامًا.

ثم واصل مناقشة (1) الوعي الذاتي، (2) الوعي الجماعي، و(3) الوعي الإلهي، الذي يغيب فيه كل وعي منفصل.¬

قال إن الإنسان في عصور ما قبل التاريخ لم يكن قد بلغ مرحلة التفرّد بعد، بل كان يُعرّف نفسه بالجماعة التي ينتمي إليها. أما اليوم، فقد وصل الإنسان إلى مرحلة الوعي الفردي، والخطوة التالية هي الانتقال من هذا الوعي إلى الوعي الإلهي.¬
لم أستطع مرة أخرى إلا أن أختلف معه.
كيف يُمكن لأصحاب العقول النقدية أن يتقبلوا مثل هذه الفكرة؟ كان إنسان ما قبل التاريخ واعيًا بجماعته. أما الإنسان المعاصر فليس واعيًا بذاته تمامًا. فهو ينجذب مرارًا وتكرارًا إلى روح العشيرة والعائلة، أي أنه يتناوب بين الانتماء الجماعي والفردي.¬
واعٍ وواعٍ ذاتيًا.إذن، يتجه تطور الإنسان المعاصر من الوعي الجماعي نحو الوعي الذاتي الكامل. والآن، اقترح الصديق اللطيف أن الإنسان، الذي بدأ وعيه الذاتي بالظهور من الوعي الجماعي، يجب أن يعود إلى حالة الوعي "الكلي" التي كانت موجودة قبل الوعي الجماعي.
تذكرتُ مجدداً أنه أوصى الناس بأن يضعوا أنفسهم في مقام الخالق. وشعرتُ للحظة وجيزة بألم روحي حاد عندما أدركتُ أن هذا الرجل أيضاً يخدم غرض الملائكة الساقطين، وتساءلتُ إن كان مجرد أداة أم أنه كان واعياً بمهمته التدميرية.
كم كانت معظم هاتين المحاضرتين جميلتين! لقد احتوت على الكثير من الحقائق، ومع ذلك لم تكن صحيحة تمامًا. إن كلمة "تقريبًا" في الأمور الروحية كلمة تنذر بالسوء. إن الشيطان نفسه "تقريبًا" إله، وفي هذه الكلمة الصغيرة "تقريبًا" يكمن كل الفرق الرهيب.
لعلّ الصديق اللطيف لم يُدرك بنفسه ما كان يفعله. كان هذا الاحتمال ضئيلاً، ولكنه قائم. توجد حالات من هذا القبيل في الحياة الروحية. يحدث أحيانًا أن يُصاب أناسٌ صادقون بعمى روحي، فيخدمون قضية الظلام بينما يعتقدون بصدق أنهم يخدمون قضية النور.
عدت إلى مكاني وجلست لأفكر في الدرس الروحي الإضافي الذي تلقيته، عندما أدركت الطبيعة الحقيقية للصديق اللطيف.

*** دين.**

في وقت متأخر من المساء، التقيت بالشاب الذي كان أول من أرشدني إلى الكانبا في اليوم السابق. سألني عن مدة إقامتي، فأجبته أنني سأغادر في اليوم التالي. كان لديه أيضاً خبرٌ مفاجئٌ لي.
انتشرت شائعة في المنطقة مفادها أن شخصًا غريبًا كان يتجول وحيدًا متنكرًا في زي تبتي، وأن زعيم القبيلة أرسل عدة فرق من الجنود لتمشيط المنطقة. إذا كنت أنا الشخص الذي لفت انتباه زعيم القبيلة، ولم يكن هناك أي غربي آخر مسافر في المنطقة، فقد تكون هذه المشكلة من تدبير شخص ما في المدينة تحت الأرض. هناك، لم أحاول أدنى محاولة لإخفاء حقيقة أنني غربي. حتى أنني لم أصبغ وجهي خلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في وادي الغموض.
كان الطيران السريع ضرورياً الآن. ولحسن الحظ، يكفي المشي لمدة يومين تقريباً بأقصى سرعة للوصول إلى المنطقة التي يسكنها النساك، حيث سأتلقى بلا شك مساعدة وحماية قيّمتين.
فكرت في المغادرة فوراً، ولكن بما أنني أعلنت عن نيتي البقاء قبل أن أسمع خبر البحث عن شخص غربي في المنطقة، لم أستطع تغيير قراري فجأة دون إثارة الشكوك.
شعرت ببعض القلق حيال هذا الأمر، لا سيما بعد أن تخلصت من رسالة ناربو.
بقيت في غرفتي طوال المساء، وحتى وقت متأخر من الليل.

*** شخص أبيض - حاكم المقاطعة.**
في الصباح ذهبت إلى المنزل لحضور المحاضرة، وكنت أنوي المغادرة فور انتهاء النقاش الذي أعقب حديث الصديق اللطيف.
في ذلك اليوم، ألقى محاضرة عن "العدم"، وعن "التحول إلى ما يشبه العدم"، وعن "السعادة التي يستمدها المرء من التحول إلى ما يشبه العدم". وهكذا كنا! ما الدافع الذي أوصى به للبحث عن مفهوم غير أناني للحياة؟ السعادة ١: البحث عن السعادة ١
لم ينبس ببنت شفة عن المعاناة الشديدة لرجل يشعر بأنه جزء من أفراح وأحزان العالم. كل ما أوصى به هو الهروب من الحياة، من "العدم"، ومن السعادة اللاحقة، أي قمة الأنانية.
قبل أن ينصرف، نظرتُ إليه نظرةً فاحصةً للمرة الأخيرة. لم يكن في عينيه أو صوته أو هيئته ما يُشير إلى ما إذا كان يؤمن حقًا بالأمور الهدّامة التي قالها، أم أنه مجرد أداة. ربما كان كذلك. في أغلب الأحيان، يكون الرسل الذين يُخدعون أنفسهم خطرين للغاية. فمن الأسهل خداع الناس إذا كان المخادع يؤمن برسالته.
أدركت مدى ذكاء الشيطان وقدرته على التكيف بشكل مروع، وبكم من الطرق المختلفة والمخفية بذكاء يمارس أنشطته في سرقة الأرواح.¬
هناك جاذبية الثروة والسلطة، وفخ الاهتمام المفرط باحتياجات الجسد. يبيع كثيرون أرواحهم للحصول عليهما. ثم هناك جاذبية التميز الروحي والجنة. مدينة المُريدين هي روح...
مراكز الخطف من هذا النوع. أما بالنسبة للأشخاص الذين لا يمكن الإيقاع بهم من قبل أي من هذين النظامين، فهناك أنظمة فلسفية دقيقة. من المؤكد أن متجر الشيطان مليء بالبضائع؛ فهو يلبي جميع الأذواق الممكنة، وفخاخه منتشرة في كل مكان.
غادر الصديق اللطيف الغرفة، واستمعت إلى النقاش الذي تلا ذلك.
سأل أحد الحاضرين: "أليس البحث عن السعادة في حد ذاته أمراً أنانياً؟" بدا وكأنه يتبنى الاعتراض الذي طرحته في ذهني أثناء المحاضرة. قال آخر: "بلى، إنه كذلك".
"إذن هناك تناقض في كل هذا"، لاحظ الآخر مرة أخرى. "نريد أن نكون غير أنانيين، ومع ذلك فنحن أنانيون في رغبتنا في أن نكون غير أنانيين".
تردد الآخر لبعض الوقت ثم قال: "لكنني أشعر أن روحي لا تريد ذلك. / أريد السعادة، لكن روحي لا تريدها."
لقد أوضحت هذه الملاحظة بشكل لافت طبيعة نوع أعمال سرقة الروح التي تُمارس على جبل البساطة، وكيف يمكن تقسيم وعي الإنسان الشمولي عن طريق "التأمل الذاتي" وفصل روحه بشكل خفي.
ازدادت عزيمتي على فعل كل شيء في الحياة بكل كياني وبشغف روحي شديد.
انطلقتُ بأقصى سرعة من الجبل حيث يعزف عازف الناي لحن البساطة ليجذب الأرواح. قطعتُ ثلاثين ميلاً سيراً على الأقدام ذلك اليوم، ولم أتوقف إلا نادراً لتناول الطعام.
عندما جلست لتناول غدائي، الذي كان يتألف من حفنة من دقيق الشعير غير المطبوخ و¬
بعد قليل من الماء، أخرجت قطعة من الورق وكتبت الرسم التخطيطي التالي:
الفلاسفة الأذكياء
في قديم الزمان، كان هناك فلاسفة أذكياء. لم يؤمنوا بالخالق. قالوا: "نحن نتبع نورنا الخاص". وفي كل الأمور، لم يعتمدوا إلا على نور التأمل الذاتي.
ثم صادفوا الشيطان.

قال أحدهم: "يا له من وحش أنا!"، "يا له من عزاء أن نعلم أن لا شيء حقيقي وأن كل شيء ليس إلا انعكاسًا لأنفسنا أنا!"
"أنت محق"، قال فيلسوف ثان. "كل شيء ذاتي؛ لا شيء موضوعي".
ثم فتح الشيطان فمه وابتلعهم.
عندما وصلوا إلى داخل جسد الشيطان، قال الفلاسفة الأذكياء بابتسامة متعالية:
"أليس من الواضح أننا كنا على حق؟ لقد اختفى الوحش."
عندما عدتُ من آسيا، وجدتُ هذه الورقة التي تناقلتها أيدي العديد من قطاع الطرق، وتعرضت للبلل بفعل المطر والانسكابات العرضية. الرسم يُصوّر بدقة الحالة الذهنية لدائرة المستمعين على جبل البساطة، إذ يبدو أنهم يتجاهلون ثنائية الخير والشر.
وفي نفس اليوم رأيت أحد اللاما الطائرة الذين وصفتهم في كتابي السابق.
بعد غروب الشمس بقليل، مررتُ بمكانٍ من الواضح أنه يُستخدم لتقطيع الجثث، وهي الطريقة المعتادة للتخلص من الموتى في التبت. يُسلّم الأقارب الجثة إلى "لاغ-باس" (المسؤول عن شؤون الموتى)، ثم يقوم الأخير بـ..
يُنقل الجثمان، البالغ عددهم 183، إلى مكان يُحدد عادةً بألواح حجرية بيضاء، حيث يُقطع اللحم ويُلقى للطيور التي تتجمع لهذه الوجبة الغريبة عندما ترى موكب الموتى يقترب من بعيد. أحيانًا يرافق الأقارب موكب الجنازة، ولكن في كثير من الحالات لا يفعلون ذلك، ويُترك قاطعو الجثث - الذين غالبًا ما يرافقهم لاما - ليؤدوا "عملهم" دون مرافقة أقارب المتوفى.
تُعد هذه الأماكن المستخدمة في تقطيع الجثث مكانًا مفضلًا للسحر والشعوذة التي تمارسها التانتريكات والناغبات التبتيات.
كنتُ في عجلة من أمري، فلم أُرِد إضاعة الوقت في الدوران حول المكان. كان هناك بعض السحرة يجلسون ويؤدون طقوسهم الغريبة بعظام بشرية من جثث نُزعت لحومها مؤخرًا. أشار إليّ أحد السحرة بالابتعاد، ولكن بما أنني سمعتُ في الجبل أن المنطقة تُفتَّش بحثًا عن دخيل أبيض، فقد كنتُ حريصًا على الوصول إلى مساكن النساك بأسرع ما يمكن، وعلى الرغم من إشاراته المُلحّة، مررتُ بالمكان على بُعد حوالي خمسين ياردة فقط.
بدا أن السحرة مستاؤون للغاية من إخلالي بشعوذتهم التي اختاروا لها وقتاً محدداً من اليوم بعد غروب الشمس مباشرة. توقفوا عن سحرهم واقتربوا مني في وضعية تهديد، وكان أحدهم يلوح بعصا "خاتوام جا"، وهي عصا سحرية مثبتة في أعلاها ثلاث جماجم بشرية على الأقل. بحلول ذلك الوقت، كنت قد واجهت أخطر قوى التبت.
وربما العالم أجمع، لذا لم أشعر بأي انزعاج على الإطلاق عندما رأيت كل هؤلاء السحرة يقتربون بطريقة تهديدية. عندما اقتربوا جدًا، رأيتهم غاضبين للغاية، وبدا وكأنهم كلابٌ أُزعجت أثناء تناولها طعامها. كادت الساحرات أن يزمجرن. كانوا كما يسميهم التبتيون "هانا بوني".
لم أكن أخشى منهم. كنت أعلم أن السحرة السود ليسوا مرعبين بقدر السحرة الرماديين، أي أولئك الذين يتخذون مظهر الملائكة والمنقذين.
أحاطوا بي، وكان كل واحد منهم ينفخ نفساً قوياً في وجهي مباشرة.
"ليعاقبك الخالق على ذلك"، فكرت، وبقيت واقفاً بلا حراك، مركزاً كل قوة روحي لمواجهة أي ميل محتمل إلى "انفصال" شخصيتي.¬

فجأةً، صرخ أحد السحرة السود بصوتٍ متألم: "تشوم-دين-دا!"، فانطلقوا جميعًا هاربين. هربوا في رعبٍ شديد واختفوا عن الأنظار كما لو أن شبحًا ظهر فجأةً خلفي وأثار فيهم خوفًا عظيمًا. حتى أن أحد "السود" ترك عصاه "خاتوام-يا" خلفه، لأن هذه العصي ضخمة نوعًا ما وتعيق الجري السريع.
لم أستطع قط معرفة السبب الحقيقي وراء فرار هؤلاء السحرة فجأة. لا أعتقد أنني فعلت شيئاً أثار فيهم هذا الرعب.
حلّ الليل، لكنني قررت أن أواصل السير.
كان الظلام حالكًا، رغم أن الريف كان جبليًا للغاية، وكنت أدرك تمامًا مخاطرة ذلك. كان عليّ أن أفكر في احتمال الوقوع في الأسر إذا صحت تلك التقارير التي تفيد بأن حاكم المنطقة قد سمع بوجود رجل أبيض. لذا، كان عليّ الاختيار بين خطرين من نوعين مختلفين، وقررت أن أغامر بأحدهما. كان من الأفضل لي أن أنتظر حتى الفجر بدلًا من السير في ظلام الليل في تلك المنطقة الجبلية، وهو ما اكتشفت لاحقًا أنه كان تصرفًا أحمق للغاية.¬
لم يكن لدي أدنى فكرة أنني ما زلت مضطراً إلى المرور بواحدة من أفظع المحن في رحلتي التبتية بأكملها قبل أن أصل إلى هدفي، وهي المنطقة التي يسكنها معظم النساك الحكماء الذين يقفون في وجه الخالق ويعزلون أنفسهم في هذه المناطق ليس من أجل الحصول على نعيم أناني، ولكن بروح التضحية لمواجهة التيارات النفسية الرهيبة التي أطلقها مختلف المخلصين وجيش الملائكة الساقطين المتجسدين في الجسد في التبت.
قد يوجد بعض هؤلاء الأشخاص حتى في الدول الغربية، ملائكة حارسة حقيقية للبشرية، يتجسدون أحيانًا في أبطال يُحاربون أعمال بعض المُدّعين بالخلاص، لكن ليس لأي كائن روحي الحق في تحديد من هو البطل ومن هو ناطق باسم الملائكة الساقطة. على كل فرد أن يكتشف ذلك بنفسه.
مشيتُ بأقصى سرعة في الظلام. لم يكن القمر قد طلع بعد، لكن السماء المرصعة بالنجوم أرشدتني ووفرت لي ضوءًا خافتًا مكّنني من تجنب أخطر المنحدرات. كم كان المشهد مختلفًا عن التضاريس المتموجة قليلاً في الشمال وبما أنني لم أكن أحمل بطانية، فقد كنت أنوي مواصلة السير حتى شروق الشمس ثم النوم حتى الظهر.
بعد منتصف الليل بقليل، بينما كنت أسير على منحدر لطيف، شعرتُ وكأن الأرض التي أسير عليها بدأت تنهار في الظلام. وبعد ثوانٍ معدودة، جرفتني المياه إلى الهاوية. تمزق جزء من معداتي، بما في ذلك الحقيبة التي تحوي معظم طعامي، بينما كنت أتقلب وأهوي في المنحدر بشدة. بعد أن قطعت حوالي مئتي ياردة على هذا النحو، بدت لي تلك الثواني وكأنها دهر، شعرتُ أن الأرض تنحدر تدريجيًا، حتى توقفتُ تمامًا. لم أكن قادرًا على الحركة. تمزق نصف ملابسي أثناء تقلباتي على الأنقاض، وربما تمزق ثمن جلدي أثناء "تقدمي" على هذا النحو. ظننتُ أن شيئًا ما قد أصاب عمودي الفقري لأنني لم أكن قادرًا على تحريك جذعي. شعرتُ أيضًا بألم مبرح في قدمي اليسرى. في هذه الحالة، استلقيتُ على الأرض وقد فقدتُ كل طعامي تقريبًا، والليل يزداد برودة. كنت أعلم أنني على بعد خمسة وعشرين ميلاً من أقرب مسكن بشري، والآن لدي متسع من الوقت للتأمل في مخاطر المستكشف المنفرد الذي يرتكب خطأ السير في الجبال ليلاً في مناطق غير مأهولة.
بقيتُ طريح الفراش في نفس المكان لمدة يومين وليلتين، مُصاباً بالشلل، مُعرّضاً لأشعة الشمس الحارقة في فترة ما بعد الظهر وللبرد القارس في الليل. لقد عانيتُ من كل آلام البرد.

شعرت بعطشٍ وعجزٍ لا يُطاق. أدركتُ أن حتى الشجاعة، حين تُدفع إلى حدّ التهور، قد تكون خطيئة، وأنّ تجنّب معصية الخالق والجار لا يكفي، بل إنّ على الإنسان واجباتٍ تجاه نفسه أيضًا. لم أشعر قطّ بمثل هذه المرارة الشديدة بأنّ هناك ما يُسمّى بمعصية النفس.
لكن خلال هذين اليومين الرهيبين، بينما كنتُ طريح الفراش عاجزًا في الجبال، مُعرَّضًا لشتى أنواع المعاناة المادية والنفسية، لم أُلقِ باللوم على الخالق قط. تمتمتُ قائلًا: "التكن مشيئتك". لقد ارتكبتُ ذنبًا بحق نفسي بتعريض نفسي للخطر دون ضرورة مُطلقة، وأدركتُ تمامًا أنني أستحق العقاب.
بينما كنتُ مُستلقيًا هناك، وحيدًا يائسًا، وجراحي تنزف بغزارة، شعرتُ أن مصيري يُحسد عليه مقارنةً بمن أسلموا أرواحهم للشيطان. في كل بؤسي الذي جلبته على نفسي، ما زلتُ ابنًا للخالق، وفي كل عذابي لم أنطق بدعاء "يا إلهي، خفف عني آلامي".¬
شعرتُ أن قوانين الكون عادلة، وأنه لا يحق لي أن أتوسل إلى الخالق بدعاء أناني. لقد تسببتُ بنفسي في هذا المأزق الرهيب، وبصفتي إنسانًا، كان عليّ أن أتحمل عواقب خطئي. أنا، المخلوق الصغير، لا أستطيع أن أطلب من الخالق أن يخالف نظام كونِه، وأن يُعدّل قوانينه الحكيمة في القصاص العادل، لإرضائي، وأن يُزيل عني العقاب الذي استحققتُه بجدارة.¬
في النهاية، من أنا، ومن هو الخالق؟
عندما تأملتُ جلاله، شعرتُ بالمسافة التي تفصله عن مخلوقاته. كيف يُمكن للمخلوق أن يُدرك عظمة الله؟ سيكون الأمر أشبه بفراشة تُحاول فهم عظمة شكسبير.¬
في اليوم الثالث، وجدتُ، بفرحٍ عظيم، أنني أستطيع الحركة قليلاً. كانت الجروح تلتئم بسرعة، وعلى الرغم من العطش الشديد، الذي يعود جزئياً إلى فقدان الدم، بدأت أشعر بتحسن. وبعد فترة وجيزة، وجدتُ أن قدمي بدأت تتعافى.
في اليوم الرابع، أصبحتُ قويًا بما يكفي للزحف. كنتُ لا أزال أشعر بألم شديد في قدمي اليسرى، ولم أستطع الوقوف منتصبًا، لكنني زحفتُ بأقصى سرعة ممكنة، معتمدًا على يديّ. في الساعة الأولى، قطعتُ مسافة مئتي ياردة. وفي الساعة التالية، زادت سرعتي إلى مئتين وخمسين ياردة. لم تكن هذه المسافة كبيرة مقارنةً بالمسافة التي تزيد عن عشرين ميلًا والتي لا تزال تفصلني عن مساكن النساك، لكنها كانت أفضل من لا شيء. حمدتُ الله على أنه أنقذني من أسوأ ما يمكن (ربما كنتُ سأُصاب في يديّ أيضًا في الحادث)، وغفوتُ من شدة الإرهاق.¬¬
بدلاً من إهدار طاقتي في فرك جسدي باستمرار كما فعلت في الليالي السابقة، عندما كنت عاجزاً عن الحركة في البرد القارس، قضيت الليلة الخامسة أزحف بسرعة ستمائة ياردة في الساعة تقريباً. وبإرادة حديدية، واصلت الزحف طوال الليل تقريباً، ثم كدتُ أنهار عند الفجر. عند الظهر، كنتُ أواصل طريقي، وفي فترة ما بعد الظهر استعدتُ جزئياً القدرة على استخدام ساقيّ.
بدت لي المسافة التي قطعتها، والتي بلغت 189 ميلاً، هائلة. كنت أقطع ما يقارب ميلاً ونصف في الساعة، وفي المساء كنت أصرخ مراراً وتكراراً. كان صدى صوتي يتردد بقوة من الجبال. كنت أصرخ كل خمس أو عشر دقائق. في سكون أجواء التبت، تنتقل الموجات الصوتية لمسافات طويلة، وكنت آمل أن يسمعني بعض النساك.
في اليوم التالي تقدمت بسرعة تقارب ميلين في الساعة. سمع ناسكان صوتًا خافتًا لصوت بشري.
عندما عثروا عليّ، كنت قد وصلت تقريباً إلى أقصى حدود قدرة الإنسان على تحمل البرد والتعرض للعوامل الجوية والعطش والجوع والإرهاق. كنت قد فقدت الكثير من الدم أيضاً، لكنني شعرت أنه بإرادة حديدية، ربما كنت سأستمر في الكفاح لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى قبل أن أنهار تماماً.

لقد اعتنى بي النساك عناية فائقة، ولم يكونوا هذه المرة "خاطفين للأرواح"، بل أفرادًا أقوياء وذوي نفوذ، يتمتعون بشخصية عميقة ومع ذلك يتصرفون بموضوعية. عالجوا جروحي بسرعة شبه معجزة، وأعطوني ملابس جديدة، وبعد يوم واحد استعادوا حتى جلد الخروف الذي كان يحوي قاربي المطاطي وبعضًا من معداتي الأخرى التي سقطت من أعلى الهاوية.
وضعوني فورًا على نظام غذائي خاص بدا غريبًا جدًا بالنسبة لي، إذ كان يتألف أساسًا من نوع من السلطة المصنوعة من نباتات طبية متنوعة والثوم. ومنذ مغادرتي المدينة الجوفية، ظلت رائحة جثث غريبة عالقة بي. لاحظ النساك هذه الرائحة، وقالوا إنها قد تكون ناجمة عن عمليات سحرية تم من خلالها إحياء جزء من المادة المنشطة.

الطريق السريع:
ظلام فوق التبتلقد سُلبت روح جسدي المادي على يد سحرة سود، ثم جرى تحلله بممارسات سحرية بهدف قتلي. قالوا إنه بما أن ممارساتهم لم تنجح في قتلي، فربما يكون أعدائي قد قتلوا أنفسهم في سبيل ذلك.
لقد تعافيت بسرعة غير عادية على أيدي هؤلاء المعالجين الرائعين، وفي اليوم الثالث بعد وصولي إلى المنطقة دخلت منزل شقيق صديقي الذي كان قد أحضر لي ملابس تبتية قبل دخولي البلاد.
قال لي مباشرة بعد أن سلم عليّ: "لقد مررت بتجارب مروعة. ولكن لو كنا قد حذرناك، لربما فاتتك أعظم تجربة في حياتك".
إذن كان يعلم بكل شيء!
سألت: "هل يجب على الجميع اكتشاف القيم الروحية من خلال المرور بمحن روحية؟"
أجاب قائلاً: "نعم، هذا أمر لا مفر منه، فالإنسان يصنع مصيره بنفسه. وبالطبع، تختلف طبيعة التجارب في كل حالة."
قلت: "لقد أصبحت الآن شديد الوعي بروحي، وشديد الوعي بذاتي".
"أتمنى ألا تتحول إلى شخص أناني"، قالها مبتسماً.
قلت: "لا، إن جرعة عالية بشكل غير معقول من الأنانية تدل في الواقع على نقص في الشخصية." على الرغم من أنني أتعامل مع الأمور بشكل شخصي للغاية الآن، إلا أنني سأعمل دائماً من أجل العالم دون أي تفكير في مكافأة روحية.¬
أدركت بشدة أنه كلما اقترب الإنسان من التفرّد الكامل، كلما ازداد وعيه بواجباته تجاه الخالق، والفرع الصاعد للحياة، وتجاه نفسه.
مشكلة العالم مشكلة فردية وجماعية في آنٍ واحد. يُغيّر الإنسان بيئته من خلال سلوكه، ويتأثر بها بدوره. والجماهير في معظمها نتاج هذه البيئة التي تتأثر وتتغير باستمرار بفعل الشخصيات المؤثرة. وفي أغلب الأحيان، تكون الشخصيات القوية هي الصديق الحقيقي للبشرية، لا أولئك الذين يدعون إلى موقف متشدد يقود إلى عبثية الانتحار الروحي والمادي. إن مجال الإنسان هو العمل.¬¬
في هذا العالم المادي، الذي هو في الحقيقة ساحة معركة لصراع هائل بين روحانيتين مختلفتين، يمثل الحكماء القلائل في التبت، وهم شخصيات عظيمة وديناميكية، شديدة الخصوصية ومع ذلك يتصرفون بشكل غير شخصي، نوعًا من حراس الخالق الذين يكبحون جماح المعسكر الآخر من "المدمرين" و"خاطفي الأرواح" الذين يعملون بشكل منهجي.
سألت رجلين حكيمين آخرين جاءا لرؤيتنا في اليوم التالي: "هل تستطيعون صنع المعجزات؟"

ابتسم "الزُهّاد" الثلاثة ابتسامة ذات مغزى.
كنت أستطيع أن أشعر بأفكارهم. لقد امتلكوا القدرة على التحكم في قوى الطبيعة، ولكن طبيعتهم نفسها منعهم من استخدام تلك
لا يجوز استخدام الصلاحيات إلا إذا كانت ضرورية للغاية في خدمة الخالق.
بعد وقفة قصيرة، قال أحد الحكماء "الزاهدين". سألني:
"لنفترض أن أحدنا قام بما يسمى بالمعجزة هنا أمام عينيك، فهل ستعتبر هذا دليلاً على مهمة إلهية؟"
أجبتُ: «لقد رأيتُ رجالاً يطيرون، ورأيتُ أفظع أنواع السحرة يُحيون الموتى... لا أعتبر أي معجزة على الأرض دليلاً على إرادة الله. لقد وضع الخالق قوانينه الحكيمة التي تحكم الكون، وليس هو ولا عباده من يخالفها».
عندما ذكرت كلمة "الخالق"، امتلأت عيونهم جميعاً بالدموع. هل فكروا في المشهد المروع لعالم يثور علناً على خالقه؟

النهاية:
لاما تانتري من طائفة القبعة الحمراء يطرد الشياطين
يبلغ سمو اللاما التانتري ذروته؛ فيدخل في حالة من النشوة
سافرت ألكسندرا ديفيد-نيل (يسارًا) مع مرشدها في جميع أنحاء التبت خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي. وبصفتها من أوائل النساء اللواتي زرن التبت، ألّفت كتاب "السحر والغموض في التبت" عام ١٩٢٩. وفي كتابها "طقوس التنشئة والمبتدئون في التبت"، تزعم ديفيد-نيل أن الرجل في أسفل اليسار (أدناه) قادر على التنويم المغناطيسي والقتل عن بُعد. ويُعتقد عمومًا أن مثل هذا الشخص مرتبط بجماعة سرية سوداء، غالبًا ما تكون تابعة لديانة البون التبتية.